قومية العمل في الحملة الوطنية الشاملة لمحو الامية ضرورة ملحة .

محفزات محو الأمية في عصر صدر الإسلام

الدكتور
كاصد ياسر الزيدي
قسم اللغة العربية ــ كلية الآداب

م/٦/٢

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

تمهيـــــد

لابد لكل أمة تريد أن تنهض في حاضرها ،أن تستلهم ماضيها وتأخذ منه ماتراه موفياً بهدفها من أجل تقدمها العلمي والحضاري . وبخاصة اذا كان هذا الماضي ، عريقاً في سموه مشرقاً في آثاره ، ذا قدم راسخة في العطاء والخير . وإنه لجدير بالأمة العربية التي تبني صرح نهضتها اليوم من جديد ، الاتغفل ما ورد في كتاب الله المجيد ، وآثار النبي العربي محمد (ص) وآله وصحبه من أسس بنيت عليها حضارة هذه الأمة ، وشيدت عليها دعائم عزها ونهضتها الأولى ، تلك الحضارة التي أفاد منها العالم القديم ، كما عاش عليها العالم الجديد سنين كثيرة ، ينهل من ينابيعها الثرة وعلومها المعطاء قبل أن ينهض نهضته المعاصرة . وعندما حل القرن التاسع عشر والقرن العشرون ، وجدت الامة العربية نفسها بحاجة ملحة إلى استعادة مجدها ، والنهوض بأبنائها نهضة تسترد بها عزها وما خلفه لها أسلافها من تراث ضخم في شتى أنواع المعرفة ، بعد أن رأت الأمم الأخرى تتسابق في مضمار التقدم العلمي والفني .

وكانت الأمية بنوعيها قد تفشت بين صفوف أبنائها لأسباب كثيرة لسنا في صدد بيانها في هذا البحث ؛ إذ هي متروكة لباحثين آخرين من زملائنا، تعهدوا بأن يدرسوها ويوفوها حقها . وإنما الذي يهمنا هنا ، ألا نغفل أثر هذه الأمية في تأخرنا ، زمناً ليس بالقصير ، عن ركب الحضارة . حتى ظن آباؤنا ولفيف من أبنائنا ، أننا لفرط تخلفنا عن الأمم المتقدمة حديثاً ،لاقدرة لنا على أن نستعيد أمجاد أمتنا الكريمة ، فنلحق بركب الحضارة .

وكانت النهضة العلمية التي شهدها عصرنا الحديث ، باعثاً لنا على أن نتحسس أنفسنا وسط هذا العالم الصاخب بانواع المعرفة والعلم ، وان نكشف كل معوق لتقدمنا الحضاري كي نزيله من طريق نهضتنا . وكان أكثر هذه المعوقات تفشياً بين أبناء أمتنا العربية بعامة ، وقطرنا العراقي بخاصة ، انتشار الأمية ، الذي رافقه التخلف الحضاري بصورة لاتدع مجالاً للشك . مما جعل كثيراً من الامين عرضة لشتى المعتقدات الخاطئة ، والعادات الضارة وخاصة

أولئك المنتمين إلى الطبقة الفقيرة ، تلك الطبقة التي كانت عرضة للاستغلال الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والثقافي ؛ بسبب افتقارها إلى المعوقات الحضارية اللازمة لإحداث وعي سليم كاف لديها . واليوم نشهد حملة شاملة لمحو الأمية في بلدنا الناهض، منبثقة من ادراك المسؤولين فيه ، للعلاقة السببية بين الأمية وشتى ضروب التخلف .

ومن هذا المنطلق الواعي، ومن منطلق الاعتزاز بالتراث الإسلامي الاصيل الذي عماده القرآن والأثر ، اخترت هذا الموضوع ، ليكون إسهاماً جاداً في البحث عن الحوافز النبيلة الفعالة التي دفعت تلك الأمة المنعوتة بالأمية ، لتكون أمة العلم والحضارة ، تنشرها بين أبنائها في سرعة وشغف ، ثم تحملها معها بعد ذلك إلى كل مكان وطئته أقدامها وظلله عدلها .

وإني إذ أخصص البحث بالقرآن والحديث في هذا الموضوع ، فانما أنطلق من منهج هدفه الكشف عن الخطوط العريضة التي رسمها كتاب الله وآثار الرسول (ص) وأهل بيته وأصحابه ، في التحفيز على تكوين أمة متعلمة قراءة وكتابة ، متحضرة وعياً وثقافة ، عالمة تدعو إلى العلم وتنشره ، مثلما تتلقاه وتأخذه .وهذا في الواقع ربع يانع فسيح يفضي بنا إلى أهم السبل التي تشحذ من عزمنا ، وتقوم من أساليبنا العلمية والتربوية من أجل نهضة تقضي على الأمية الأبجدية والحضارية ، وتعيد لأمتنا غابر مجدها .

ولما كان البحث يتعلق بفترة صدر الاسلام، جعلته يدور على قطبين : أحدهما القرآن الكريم، والآخر الآثار المروية عن النبي (ص) وأهل بيته وصحابته على مابينته آنفاً

الفصل الاول

محفزات محو الامية في القران

القسم الاول

مفهوم الأمية في منهج البحث ودلالة القرآن :

قبل أن ألج الموضوع مباشرة لابد لي من تحديد المفهوم الذي ارتضيته للأمية في بحثي هذا ، في ضوء ماهداني إليه البحث ، ليكون ذلك تحديداً للمنهج الذي سلكته في تحريره ، مبيناً المسوغ العلمي لهذا المفهوم .

إن لمحو الأمية مفهومين: أحدهما ضيق يختص بمحو الأمية الأبجدية، والآخر واسع ذو شمولية ؛ إذ هو يتناول محو الأمية الأبجدية ومحو الأمية الحضارية (١) المتعلقة بقدرة الفرد على الفهم والإدراك والتقدم الحضاري . وهذا المفهوم ليس جديداً في الواقع ، بل هو قديم في أصوله : وقد نبّه الله عليه بقوله في مخاطبة نبيه محمد (ص) : «وعلّمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً » (٢) .

فهذا التعليم الربّاني الذي تلقاه النبي العربي الكريم ،تعليم حضاري . وهو بعدُ من مستلزمات دعوته وطبيعة رسالته؛ إذ هو بحكم شمول هذه الدعوة سيواجه أمماً ذوات ثقافات وحضارات متقدمة ،ويدل على ذلك قوله تعالى : «تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » (٣) .

---

(١) وبهذا المفهوم الواسع الشامل اخذ الجهاز العربي لمحو الامية وتعليم الكبار العربية ، ونعم مافعل . ينظر في هذا الصدد (مقال الدكتور مسارع الراوي في جريدة (الثورة) العراقية ص٣ العدد ٣١٠٦ في ٨/ ٩/ ١٩٧٨

(٢) النساء : ١١٣ .

(٣) الفرقان : ١

وعلى هذا الأساس من مفهوم الأمية ، وصف القرآن بني إسرائيل بأنهم أمّيون ، وعلل ذلك بأنهم لايعلمون من معاني الكتاب شيئاً ، بل هم يتخرصون ويقولون الباطل ظناً لايقيناً ، فقال في سورة البقرة : (١)

«ومنهم أُمّيون لايعلمون الكتاب إلا أمانيّ وإن هُمْ إلا يظنّون» .

وقد روي عن عبد الله بن عباس والمفسّر التابعي الكبير قتادة بن دعامة السدوسي أن معنى «أمّيون» هنا ، «غير عالمين بمعاني الكتاب ، يعلمونها حفظاً وتلاوة لارعاية ودراية وفهماً لما فيه» . (٢) فهذا التأويل يدل على أن المراد بالأمية في الآية ، الأمّية الثقافية والحضارية ، لا الأمية الأبجدية .

وروى الطبري (ت ٣١٠هـ) بسنده عن الضحاك عن ابن عباس تأويلاً للأميين بنفس هذا المفهوم ، إذ بيّن أنه قال : «الأميون قوم لم يصدقوا رسولاً أرسله الله فكتبوا كتاباً بأيديهم ثم قالوا لقوم جهّال : «هذا من عند الله» . وأنه احتج لذلك بسياق الآية ، وهو قوله تعالى بعد ذلك مباشرة : «فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله» ، فقال : «قد أخبر أنهم يكتبون بأيديهم ثم سماهم أميين لجحودهم كتب الله ورسله» . (٤)

وهذا النص في الواقع ثمين ، وبخاصة أنه صدر عن مفسّر حاذق مثل ابن عباس ، إذ هو صريح في أن الأمية في الآية ليست الأمية الأبجدية ، بدليل وصفهم في سياق الآية بأنهم يكتبون . مما يشعر أن أميتهم ثقافية حضارية ، وإن كان الطبري لم يرتض هذا المفهوم للأمية ، مستدلاً على ذلك بالمتعارف عليه — فيما يذكر — من كلام العرب بينهم ، وهو أن الأمي الفرد الذي لا يكتب . (٣) ويعضد ماقدمناه الصورة التي رسمها القرآن لحالة بني إسرائيل الثقافية والفكرية في سورة الجمعة ، إذ شبههم في تكليفهم العلم بالتوراة والعمل بها ، ثم عدم حملهم لها ، من أداء حقها والعمل بها ، بحال الحمار يحمل كتب العلم على

---

(١) الآية : ٧٨ .

(٢) الطبرسي : مجمع البيان في تفسير القرآن ٣٢٤/١ .

(٣) الطبري : جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣٧٣/١ — ٣٧٤ .

(٤) المصدر نفسه ٣٧٤/١ .

ظهره ، لايدري بما فيها ، ولا يناله من فائدتها إلا مايصيبه من تعبها ،(١) فقال : «مثل الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لايهدي القوم الظالمين » (٢) .

وإلى هذه الوجهة ذهب المستشرق ر . باريه R.Paret .، في فهم آية البقرة التي أوردناها آنفاً ،فرأى أن الآية «لاترمي الأميين بالجهل بالقراءة والكتابة، بل ترميهم بعدم معرفتهم بالكتب المنزلة » (٣) .

إلا أن أحمد محمد شاكر ضعّف خبر الضحاك عن ابن عباس – الذي أوردناه سالفاً عن الطبري – وعلّل ضعفه بانقطاعه ؛ على أساس أن الضحاك – وهو تابعي – لم يلق ابن عباس .ورأى أنه لو صح «لكان له وجه على سبيل المجاز » (٤) ، على حين رأى العقاد العكس ،وهو أن يكون استعمال الأمية بمعنى الجهل الأبجدى هو المجاز ، وذلك بأن يكون استعارة ، ولكن المعنى القرآني حوله إلى حقيقه (٥) . فكأنة ضرب من الحقيقه العرفية . ولا استبعد أن يكون المراد بالأماني في الآية :التلاوة ، كما قال في آية أخرى : «وما أرسلنامن قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنّى ألقى الشيطان في أمنيّته فينسخ الله مايلقي الشيطان ثم يحكم الله آياتة والله عليم حكيم » (٦) ، إذ التمني في هذه الآية يعني التلاوة ،فيمكن ردّ آية البقرة إلى هذه الآية ،وحمل التمني فيها على هذا المعنى ،والقرآن يفسّر بعضه بعضاً كما هو معلوم .والى هذا التأويل ذهب الكسائي والفراء (٧) . فيكون اليهود ،على هذا ، لايعلمون من الكتاب شيئاً إلا تلاوته ،ويجهلون معناه والعمل به. وهذا متوجه وقريب من آية الجمعة التي أوردنا سالفاً . وقد فسّر أبو عبيدة (الأماني) بالقراءة ، وقال

---

(١) الطبرسي: مجمع البيان ٧٠/٢٨ (٢) والنسفي : مدارك التنزيل ٢٥٥/٤ .

(٣) دائرة المعارف الاسلامية ٦٤٥/٢ ، مادة (أمي)

(٤) المصدر نفسه ٦٤٨/٢

(٥) احمد شحلان : مفهوم الأمية في القرآن ، بحث في مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية ،العدد الاول ص ١٢١ .

(٦) الحج : ٥٣ (٧) الطوسي : التبيان في تفسير القرآن ٣١٨/١

لأن الأمي الذي يقرأ ولا يكتب. وكان يفسر الآية : لايعلمون الكتاب الا أنهم يقرأونه (*) .

على أن بعض قدامى اللغويين حمل الأمية في الآية على غير الأمية الأبجدية أيضاً ، فقد كان قطرب بن المستنير يقول : « الأمية : الغفلة والجهالة ، فالأمي منه ؛ وذلك هو قلة المعرفة » ، ويستدل بالآية على ذلك(١) وإذا كان القرآن قد شهد للنبي محمد (ص) بتعليم الله إياه تعليماً حضارياً كما أسلفنا — ، فانه من ناحية أخرى شهد له بالأمية الأبجدية ، بما يقطع كل شك ويزيل كل مراء ، إذ قال :

«وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك إذاً لارتابَ المبطلون» (٢) فشهد له بأنه لم يكن قارئاً كاتباً قبل أن يبعث رسولاً ، ثم انه قال مصرحاً بأميته في موضع آخر « الذين يتبعون الرسول النبيّ الأميّ الذي يجدونهُ مكتوباً عندهم في التوراةِ والانجيلِ» (٣) ، وقال سياق الآية نفسها :

« فآمنوا بالله ورسوله النبيِّ الأُميِّ الذي يؤمن بالله (٤) .

وسواء أكان (الأمي) مشتقاً من (الأمة) الذين لم يكتبوا لكونه على عاداتهم كقولهم : فلان عاميّ لكونه على عادة العوام (٥) وهو ماذهب اليه باريه أولاً — (٦) ، ام كان مشتقاً من الأم(٧) ، وهو أصل الشيء ، لأنّ الأمي لم

(*) ابن هشام : السيرة ٢/٢٥ ٣٨٠

(١)الراغب : مفردات القرآن ص ١٩ مادة (ام)

(٢) العنكبوت : ٢٩

(٣) الاعراف : ١٥٧

(٤) الاعراف : ١٥٨

(٥) الراغب : مفردات القرآن ص١٩

(٦) ذهب ر. يارية إلى ان لقب (امي) يرجع من بعض الوجوه إلى كلمة (أمة) ، إلا أنه لم يلبث ان قال بعد ذلك : « ولكن يظهر انه ليس مشتقاً منها مباشرة ؛ لأنه لم يظهر إلا بعد الهجرة» ، ونفى ان تكون اللفظة مشتقة من كلمة (أم) ، بل ذهب إلى انها مأخوذة من العبرية (أمّا) ، او من الآرامية (أمّيثا) ، واحتمل ايضاً ان تكون هذه الكلمة اجنبية ، دخلت العربية في زمن متقدم بعض الشيء ! وزعم ان النبي محمداً (ص) أخذ هذه الكلمة واستعملها فصارت منذ ذلك الحين لفظاً اسلامياً (تنظر : دائرة المعارف الاسلامية ٢ /٦٤٣ — ٦٤٤ ، وكذلك ٢/٦٣٩ — ٦٣١) . وهذا تخبط منه واضح ، إذا لايكاد يستقر على رأي كما أن التأثر دعوى لا ناصر لها ، لأن تقارب لفظين في لغتين ساميتين ، لا يعني الأخذ والتأثر . ومن الثابت ان اللغة العبرية والعربية بينهما تشابه . (وانظر تعليق احمد محمد شاكر بهامش ٢/٦٣١ من دائرة المعارف الاسلامية).

(٧) مفردات القرآن ص ١٩ .

يكن يكتب ويقرأ ، بل هو على أصل فطرته ، فان الذي يطمئن اليه الباحث وتعضده النصوص والواقع ، هو أن النبي محمداً (ص) لم يكتب طيلة حياته «وذلك — كما يقول الراغب الاصفهاني(١) — فضيلة له ؛ لاستغنائه بحفظه ، واعتماده على ضمان الله منه بقوله : « سنقرئك فلا تنسى ».

وهذا التوجيه لأصل اشتقاق اللفظة أقوى من الرأي القائل : إنه سمي بذلك لنسبته إلى أُم القرى (٢) ؛ ولهذا ذكره الراغب بصيغة التضعيف «قيل » فكأنه لم يكن مقتنعاً به ، بعد أن أورد الرأيين السالفين .

والحق هو أن نسبة الأمية الأبجدية إلى النبي (ص) لاتقلل من مكانته شيئاً ؛ بل بالعكس فانها تدل على فضل عظيم ؛ إذ استطاع هذا الأمي — الذي لايقرأ ولايكتب — أن يحمل هذا العلم الغزير الذي ورثه المسلمون عنه ، وأن يكوّن أُمة ذات حضارة أمدت العالم بكنوز المعرفة العلمية والانسانية . وقد أوردنا آنفاً عبارة الراغب في فضيلة أميته ، وأيضاً فهذه الأمية ذات وشيجة وثيقة بنبوته ورسالته ؛ إذ لو كان كاتباً قارئاً لوجد المتشككون في ذلك مجالا للطعن في نبوّته ، ولزعموا أنه قرأ كتب الأديان التي قبل الاسلام .

ولأمر ما ، حاول عدد من المستشرقين مثل PHlammen أن يفسروا(الأمي) بـ (الوثني) gentit — الذي هو واحد من قوم لاكتاب موحى به لديهم — في كلتا الآيتين اللتين وصف بهما النبي (ص) بالأمية . وزعموا أن القرآن إنما سمى النبي أمياً ؛ لأن العرب لم يكن لهم كتاب منزل (٣) .

وغرض المستشرقين من هذا الزعم ، أن يوهموا أن النبي كان قادراً على القراءة والكتابة وهذا ما وقع فيه بعض القدامى من المسلمين — عن غير قصد وبحسن نية — فزعم أبو الوليد بن خلف الباجي (ت٤٩٤) في رسالة سمّاها « تحقيق المذهب» إلى أن النبي كان يكتب ، مما أثار عليه معاصريه ، فرد عليه أبو بكر الصائغ وخطّأه بل كفّره (٤) !

وقد أغاظ باريه ماذهب اليه فرانتز بول Frants Buhl ، من أن كلمة(أمي)

(١ ، ٢) مفردات القرآن ص ١٩

(٣) احمد شجلان مفهوم الامية في القرآن

(٤) احمد شجلان : مفهوم الأمية في القرآن ص ١١٤ .

معناها الذي لايقرأ ولايكتب ،وليس معناها الوثني .وزعم أن هذا الرأي مطابق لنص الآية ٧٨ من سورة البقرة :« ومنهم أميون ...» ثم استدرك على هذا المستشرق : بأن ماعليه في هذا الرأي أكثر مما له . واحتمل أن يكون لفظ الأميين في الآية يراد به الوثنيين ،عند من يريد البحث عن معنى آخر ، وجزم بأن له هذه الدلالة في الآية ٧٥ من آل عمران ،وهي قوله تعالى :

« ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار لايؤده اليك إلا مادمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ...»

ولسنا مع الاستاذ أحمد محمد شاكر — رحمه الله — في أن الآيات الست التي تحدثت عن الأمية في القرآن « سياقها كلها يدل على أن المراد بالأمي من لايعرف القراءة والكتابة »(١) ،إذ نرى — كما هو جليّ بما قدمناه — أن لها دلالتين اثنتين : احداهما — عدم القراءة والكتابة،أو قل الأميّة الأبجديّة ، وهي التي تتعلق بالنبي (ص) وقومه .وعلى أساسه وردت تسميتهم « الأميين » جرياً على الغالب (٢) فيهم .ذلك أن الأمية تنتشر بين البداة ، أما الحضر فهي أقل بينهم نسبياً.والثانية — هي الأمية الحضارية والثقافية ، وهي التي تجلت في وصف القرآن لليهود في آية البقرة التي أوردنا .ولم يكن النبي أمياً بهذا المعنى . فالأمية على هذا تعني — فيما تعني — الأمية الثقافية ، وهي كما ترى من النص القرآني قد تجاوزت مفهوم الجهل بالقراءة والكتابة ، الذي رأى بعض الدارسين اقتصارها عليه ، كما تجاوزت مفهوم الجهل بالكتابة وحدها الذي ذهب بعض القدامى اليه ، كأبي عبيدة مثلا(٣) ،إلى الجهل بمعاني الكتب المنزلة ، وهي الكتب التي ينبغي على القوم أن يعنوا بها ويتدارسوها ، ولكنهم بعد أن حرفوها تركوها وراء ظهورهم ،فاستحقوا بذلك الذم ، أو قل استحقت ذلك منهم فئة غير قليلة ، ولذلك قال :« ومنهم أميون لايعلمون الكتاب إلا أماني » .

(١) دائرة المعارف الاسلامية ٦٤٦/٢

(٢) وقد وصف النبي (ص) العرب بالأمية على هذا المفهوم ،حين قال :« إنا امة امية لا تكتب ولا تحسب الشهر هكذا وهكذا » ، إذ لم يكونوا اميين على الاطلاق ،بل كان الغالب فيهم ذلك ولهذا قال ابن حجر :« وقيل للعرب اميون : لأن الكتابة كانت فيهم عزيزة ... ولايرد على ذلك انه كان فيهم من يكتب ويحسب ؛ لأن الكتابة كانت فيهم قليلة ونادرة..» فتح الباري ٢٨/٥ — ٢٩ .

(٣) اشرنا اليه سالفاً .

والآية وإن كانت تتحدث عن بني اسرائيل ، وتدمغ فئة منهم بالأمية الحضارية والثقافية ،الا أنها لاتقف عندهم في فحواها ،بل تتناول أيضاً بطريق غير مباشر كل من لايدرك مافي الكتاب المنزل اليه من معان ومفهومات ،ولا يسعى إلى معرفة معانيه بالدرس والتتبع .فالأمية اتخذت في بعض معانيها قراءة القرآن من غير فهم ولا إدراك لمعانيه ،وهذا المفهوم يتعلق ـ كما ترى ـ بالناحية الثقافية من الأمية ،لا الأبجدية .وهو ـ فيما يبدو ـ مفهوم جديد على المفهومات السائدة المعروفة للأمية إذ ذاك .

وبذلك يمكننا أن نقول : إن القرآن قد جعل مفهوم الأمية أوسع وأشمل وأكثر أهمية وفاعلية في حياة الفرد والأمة ، بحيث تناول الأمية الثقافية،ولم يقف عند حدود بيان الأمية الابجدية ،التي تمثل في الواقع ضرباً من الأمية وليست جميعها .

ويعزز هذه الشموليه ـ التي بيناها سالفاً ـ ماروي عن عبدالله بن عباس ،وهو علم من أعلام الثقافة القرآنية والحديثية والفقهية والأدبية في الاسلام ،إذ يقول « ماأنزل الله تعالى كتاباً إلا أحبَّ أن يُعلَم تفسيرهُ ،فمن قرأ القرآن ولم يَعلَم تفسيره فهو أُمي »(١)

والحق أن هذا المفهوم للأمية ـ إذا تأملنا فيه جيداً ـ ليس بعيداً عن مفهومه الأول ،وهو الجهل بالقراءة والكتابة ،وانما وصف ابن عباس غير العارف بمعاني كتاب الله ـ ومنها القرآن الكريم مع قراءته له ـ بالأمية ؛ لأنه يكون كمن لم يقرأ .ذلك أن القصد من قراءة أي نص ، فهم مافيه من أفكار ومعان ومفهومات فإذا لم يفهم القارىء مافيه ، فكأنه لم يقرأه أصلا !

ويعضد هذا ماروي عن سعيد بن جبير ـ وهو من مفسري التابعين ـ إذ يقول « مثل من قرأ القرآن ولم يعلم تفسيره ،كمثل رجــــل جاءه كتاب من أعز

---

(١) الحكيم الترمذي : الأمثال من الكتاب والسنة ص٧٢ ـ ٧٣ .

الناس اليه ، يفرح به ويطلب من يقرؤه عليه فلم يجد ، وهو أمي . ففرح بالكتاب ولا يدري مافيه »(١) .

ومما يشعر بأهمية ذلك عملياً أن النبي (ص) كان أول مايبادر به من أسلم من المشركين تفقيهه في أمور الدين واقراءه القرآن ، فكان يجمع له بذلك بين الفهم والقراءة (٢) .

ويمكن القول من غير تردد ، إن هذا الفهم الشامل الفسيح للأمية ، كان ذا أهمية كبيرة في تحفيز المسلمين على التعلم بمفهومه الواسع ، الشامل لأصناف الثقافة العامة التي يحتاجونها في حياتهم العلمية ، المتعلقة بالعبادات والمعاملات والسلوك الفردي والاجتماعي والانساني .

وقد فتح القرآن الباب لاستنباط المعاني المحققة لهذا القصد ، بما تحمل آياته من زخم معنوي ثر ، حتى إن الطبرسي (٣) (ت ٥٤٨هـ) يقف في خاتمة تفسيره للآية الكريمة : «ومنهم أميون لايعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون» ، مبيناً ما استنبطه منها من معان ذات فوائد جمة ، فيقول : «وفي هذه اية دلالة على أن التقليد في معاني الكتاب وفيما طريقه العلم غير جائز ، وأن الاقتصار على الظن في أبواب الديانات لايجوز ، وأن الحجة بالكتاب قائمة على جميع الخلق ، وإن لم يكونوا عالمين ، إذا تمكنوا من العلم به ، وأن من الواجب أن يكون التعويل على معرفة معاني الكتاب لا على مجرد تلاوته » . فظاهر الآية دال على أن قراءة كتاب الله وحدها غير كافية ، بل لابد لقارئه أن يتفهم معانيه ومقاصده ، وهذا يشعر دون شك ، أن تعلم تفسير القرآن وفهم معانيه لمن استطاع اليها سبيلاً ، ضرورة ثقافية وحضارية تحتمها الغاية من نزوله وقراءته .

---

(١) المصدر نفسه ص ٧٣ (٢) ابن هشام : السيرة ٢/ ٤٨٦ ، وسنوضح هذا الموضوع بصورة اجلى ، عند الكلام على محفزات الأمية في المأثور عن النبي(ص) واصحابه .

(٣) مجمع البيان في تفسير القرآن ١ / ٣٢٥.

القسم الثاني

القرآن ومحفزات التعليم :

حفل القرآن بكل مايحفز على التعلم والتعليم ، فاشتملت آياته البينات على معان متنوعة في هذا الموضوع . وهي في أصالتها حرية بأن تبعث في الانسان حب العلم والتزود منه، والاستفادة منه في الحياة ، وتعليمه ونشره . سواء أكان هذا العلم دينياً صرفاً ، أم كان ذات وشيجة بالدين ، أم كان في ظاهره بعيداً عن الدين ، إلا أنه — في حقيقته — غير منقطع الوشيجة به . وفي كل ذلك لاينبغي للمسلم الحق أن يفرط في طلبه وتحصيله ، وإن تفاوتت درجات عنايته بهذا الضرب من العلم أو ذاك. وفي هذا يقول المفكر المعروف شكيب أرسلان (١) : «يقول بعض الناس مالنا وللرجوع إلى القرآن في ابتعاث همم المسلمين إلى التعليم ، فان النهضة لاينبغي أن تكون دينية ، بل تكون وطنية هي نهضة أوربه. ونجيبهم: إن المقصود هو النهضة سواء كانت وطنية أم قومية ، كما دينية،على شرط أن تتوطن النفوس على الخَبّ في حلبة العلم، ولكننا نخشي إن جردناها من دعوة القرآن أن تفضي بنا إلى الإلحاد والإباحة من ، وعبادة الأبدان واتباع الشهوات ، مما ضرره يفوق نفعه . فلا بدلنا تربية علمية سائرة جنباً إلى جنب مع تربية دينية » .

وإذا بحثنا عن محفزات محو الأمية ، بنوعيها : الأبجدي والحضاري ،في القرآن ألفيناها كثيرةمتنوعة ،يعضد بعضها بعضاً في ابتعاث تلك الهمم التي كان المفكر العالم شكيب أرسلان يطمح اليها في كلامه الذي أوردناه آنفاً،كما كان يطمح اليها صاحب الدعوة والمعلم الأول الذي بشر بالقرآن ،وأصحابه من قبل ، ويطمح اليها العرب والمسلمون في كل عصر ومصر . وأول مايلقانا من هذه المحفزات القرآنية :

---

(١) لماذا تأخر المسلمون ص ١٢٢ — ١٢٣ .

(١)

تسميته قرآنا :

فتسمية كلام الله المنزل على النبي محمد (ص) قرآنا ،أول مايبادرنا من محفزات محو الأمية في هذا الكتاب السماوي .وقد ورد ذكره فيما يقرب من سبعين مو ضعاً ،كقوله :

«شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن » (١)

« وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ » (٢)

ومع أن المهتمين بالدراسات القرآنية من القدامى،ذهبوا مذاهب في حقيقة الأصل اللغوي للفظة (القرآن) ، حتى قالوا إنه من القرء بمعنى الجمع،من قول القائل : جمعت الشيء وضممت بعضه إلى بعض،كقول العرب: ما قرأت هذه الناقة سلىً قط ، أي: لم تضم في بطنها جنيناً قط(٣) أو أنه مرتجل، أي موضوع من أول الأمر علماً لكلام الله المنزل على محمد (ص) (٤) إلا أن الرأي الذي يعول عليه،هو أن القرآن مصدر مرادف للقراءة . تقول : قرأت الكتاب قراءة وقرآناً، ومنه قوله تعالى : «إن علينا جمعه وقرآنه » أي: قراءته (٥) ،وقوله : « فإذا قرأناه فاتبع قرآنه » ، وذلك لبعد تلك الآراء عن موارد اللغة وقواعد الاشتقاق .(٦)

ومع أن للقرآن أسماء أخرى وردت في القرآن ، من مثل « الكتاب » (٧) و«الفرقان» (٨) و«التنزيل» (٩) ، الا أن لفظة القرآن مختصة به وحدة فهي

---

(١) البقرة : ١٨٥

(٢) الانعام : ١٩

(٣) ابو عبيدة :اعجاز القرآن ١ /٢-٣، والباقلاني : نكت الانتصار لنقل القرآن ص٥٦.

(٤) الزركشي: البرهان في علوم القرآن ١ /٢٧٧-٢٧٨

(٥) الطبري : جامع البيان ١/٤٢ — ٤٣، والباقلاني : نكت الانتصار لنقل القرآن ص ٥٦

(٦) الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن ١/٧

(٧) تنظر على سبيل المثال : البقرة :٢،٨٩،١٢٩،١٥١ ... وآل عمران :٣،٧،٢٣...

(٨) البقرة :٥٣ ، ١٨٥ ،وآل عمران : ٤ ... (٩) فصلت :٢،الواقة : ٨ ،الحاقة:٤٣..

لاتطلق على كتاب سماوي سواه (١) ، كماأنها أكثر دوراناً فيه من بقيــة الألفاظ التي سمي بها .بل انها غدت كذلك في حياة الناس وتسميتهم ، إذ هم لايكادون يطلقون على الكتاب الذي أنزل على محمد (ص) ، غير اسم القرآن.

ويلحظ من استقراء الآيات المتعلقة بقراءة القرآن وتعلمه وتعليمه وتفهم معانيه والاستماع اليه أن الغالب أن يرد معها من أسماء كتاب الله لفظ «القرآن» وذلك من مثل قوله تعالى :

« فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم »(٢).

« وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث »(٣)

« أفلا يتدبرو ن القرآن » (٤)

« وإذا صرفنا اليك نفراً من الجن يستمعون القرآن »(٥)

« أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها »(٦)

« الرحمن . علـّم القرآن »(٧)

« وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون » (٨)

وهذا الاستعمال للفظة «القرآن» متساوق مع معاني هذه الآي ؛ إذ هي تدور على المعاني التي أسلفناها ،من مثل العلم والتعلم والاستماع لغرض التعلم والفهم، وما اليها .وكلها وسائل للمعرفة ومحو الأمية الثقافية والحضارية فضلاً على أنها محفزات ذات أثر نفسي عميق في محو الأمية الأبجدية ؛ ذلك أن الذي يجهل القراءة والكتابة ، لايستطيع أن يلبي هذا النداء ويستمتع بمعاني القرآن وتدبره مالم يتعلم قراءته .

---

(١) ابو عبيدة: مجاز القرآن ١/١ .

(٢) النحل : ٩٨

(٣) الاسراء : ١٠٦

(٤) النساء : ٨٢

(٥) الأحقاف: ٢٩

(٦) محمد : ٢٤

(٧) الرحمن : ١ – ٢

(٨) الاعراف: ٢٠٤

ولاشك أن دوران لفظة « القرآن » بدلالتها المشعرة بالقراءة ، واستعمالها مع مايرتبط بالعلم والتعلم ، لهما أثرهما الواضح في التحفيز على التعلم نفسه، سواء أكان أبجدياً أم حضارياً .

ومما يتصل بهذا الموضوع تسمية القرآن بلفظة «الكتاب » كما في قوله تعالى « ذلك الكتاب لاريب فيه» (١) ، وقوله : «مافرطنا في الكتاب من شيء» (٢) . ويكشف لنا المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، أن كلمة «الكتاب» كثيرة الدوران أيضاً، بهذا المعنى ، في القرآن . وقد وردت في مواضع كثيرة مضافة اليها لفظة «أهل» للدلالة على اليهود والنصارى، إذ سماهم القرآن «أهل الكتاب» . والمراد بالكتاب هنا في هذه التسمية: التوراة والإنجيل(٣)، وإذا ذكره في سياق الحديث عن اليهود ، فانما يريد به خصوص التوراة كما في قوله تعالى : «وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب » (٤) ، إذ المراد بالكتاب في الآية : التوراة . (٥) والوشيجة بين الكتاب والكتابة وثيقة ، وقد بين الراغب الأصفهاني (٦) أن الكتابة موضوعة في العرف لضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط ، فهذا هو الأصل فيها ، ولكن قد يقال ذلك على سبيل الاستعارة لما هو ملفوظ ، يقول: «ولهذا سُمي كلام الله ، وإن لم يُكتَب، كتاباً . كقوله: «الم ذلك الكتاب» ، وقوله : «قال إني عبد الله آتاني الكتاب » .

وهذا إن دل على شيء، فانما يدل على اهتمام القرآن الكبير بالكتابة والكتاب، ففيه إعلاء لهما بتسمية القرآن بأحدهما ، وهو «الكتاب» كما أوضحنا . وحيثما ذكر الكتاب كان قرينَه – بالتداعي – الكتابة ، فلولا الكتابة ماكان الكتاب ، كما تقضي بذلك بدائه العقول .

---

(١) البقرة : ٢

(٢) الأنعام : ٣٨

(٣) الراغب : مفردات القرآن ص٤٤٢

(٤) آل عمران : ٧٨

(٥) مفردات القرآن ص ٤٤١ – ٤٤٢

(٦) مفردات القرآن ص ٤٤٠.

(٢)

إسناد التعليم والكتابة الى الله :

إن اسناد الكتابة إلى الله في القرآن ، محفز آخر فعال على التعلم . فالملاحظ أن إرادة الله تعالى في خلقه ، وقضاءه فيهم ، مما يؤكده القرآن في آيات كثيرة . وهو يتخذ من الكتابة في مواضع كثيرة ، مادة للتعبير عن هذا المعنى وتقريره . كقوله في تقرير غلبة الله ورسوله :

« كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلي » (١) .

وفي تقرير قضائه وقدره على لسان عباده المؤمنين :

« قل لن يصيبنا إلا ماكتب الله لنا » (٢)

وفي تقرير أحكامه وعقوباته :

« كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم » (٣)، « كتب عليكم اذا حضر أحدكم الموت ...» (٤)

« وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس » (٥)

وسواء أكان الفعل مسندا إلى الله صراحة ببنائه للمعلوم ، كما هو واضح من أكثر الآيات التي أوردنا ، أم كان الحكم هو المشعر بذلك مع صيغة بناء الفعل للمجهول كما هو ظاهر في «كُتبَ» في الآيتين الأخيرتين ، فان الفعل في كلتا الصيغتين (٦) يؤدى نفس الدلالة ، وهي تؤكد قدرة الله وقضائه وأمره ، وقد علل الراغب الاصفهاني ذلك تعليلا دقيقاً ، بأن جعل الكتابة مسببة عن الارادة ونتيجة لها ، فقال :« ويعبّر عن الاثبات والتقدير والايجاب والفرض والعزم، بالكتابة . ووجه ذلك ، أن الشيء يراد ثم يقال ثم يكتب.

---

(١) المجادلة : ٢١ (٢) التوبة : ٥١
(٣) البقرة : ١٨٣ (٤) البقرة : ١٨٠
(٥) المائدة : ٤٥
(٦) مفردات القرآن ص٤٤٩ .

فالارادة مبدأ والكتابة منتهى . ثم يعبّر عن المراد الذى هو المبدأ إذا أريد تؤكيده بالكتابة التي هي المنتهى » قال :« كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلي » وقال :« وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ..»
وهذا التكرار لصيغ مادة (كتب) في القرآن ، وورودها في مواضع كثيرة للتعبير عن التقرير والقضاء والارادة الالهية ، يشعر بأهمية الكتابة من ثلاث جهات :
أولها – أنها أسندت إلى سبب هذا الكون كله ، إلى خالق كل شيء .
والثاني – أنها عُبّر بها عن قضاء الله وتقديره للامور ، وهو أمر يتصل بقدرة الله تعالى وأسراره في خلقه وشؤونه فيهم . الأمر الذى يجعل الكتابة متعلقة بشيء هام جليل .
والثالث – أنها أتصلت بكتب الله المنزلة على أنبيائه ، التي كتب فيها توجهاته لخلقه، وجعلها قيداً لأوامره ونواهيه . وقد جاء في القرآن خبر ذلك كله ، قال تعالى : في شأن التوراة :« وكتبنا عليهم فيها ... » وفي شأن الزبور « ولقد كتبنا في الزبور ...» (٧)

فهذا يسلم إلى مسألة مهمة أكدها القرآن في غير آية ، وهي ارتباط توجيهات الله وأحكامه بالكتابة ، تلك الأحكام والتوجيهات التي أوحى بها إلى رسله، وقد جاء في القرآن الكريم أيضاً ، في سياق الحديث عن ميقات نبي الله موسى عليه السلام :
« وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء ...» (١)
وفي إسناد التعليم والكتابة إلى الله في القرآن ، حافز على إكبار التعلم والكتابة وذلك واضح لمن وعى هذا الأمر وتدبره بإمعان .
فالقرآن يرجع أصل التعليم إلى السبب في حدوث هذا الكون ، إلى مسبب الاسباب كلها ، وهو الله . وهو اذ يفعل ذلك فانما يعلي – دون ريب –

---

(٧) الأنبياء : ١٠٥
(١) الأعراف : ١٤٥

من شأن العلم والتعلم ، بل ويحفر على التعليم تحفيزا ، وذلك حين يقرر أن الله هو الذى علّم بالقلم ، يقرر ذلك في أول آيات نزلت منه ، فيقول:
« إقرأ وربك الاكرم. الذى علّم بالقلم. علم الانسان مالم يعلم» (٢) وفي هذا ــ كما يقول الدكتور محمد ماهر حمادة(٣)ــ « تشريف وإعظام لكل من علّم أو تعلم أو أمسك قلماً مدى العصور ».

(٣)

الامر بالقراءة في أول سورة نزلت :

تبدو أهمية القراءة ــ وهي صنو الكتابة ورفيقها ــ في إصرار الوحي على إقراء النبي محمد (ص) منذ بدء القرآن، وفي اللحظات الأولى من الرسالة، مع أنه أكد للملك جبريل أنه ليس بقارىء ، وذلك لأمّيته .

لقد كانت السورة الأولى التي نزلت على النبي العربي الأمي ، تحثه على (القراءة) وتذكر (القلم) الذى علّم الله به الانسان مالم يعلم (٤) . وترد هذه الحادثة في مظانها مسندة إلى السيدة عائشة ، اذ تقول :
« كان أول مابُدِىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم فكان لايرى رؤيا الا جاءت مثل فلَق الصبح ، ثم حُبّب اليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه ، وهو التعبد الليالي أولات العدد قبل أن يرجع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى أهله فيتزود لمثلها ، حتى فجئه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال : إقرأ ، قال : قلت ما أنا بقارىء ، قال : فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجهد ثم ارسلني فقال : أقرأ، قلت : ماأنا بقارىء ، فأخذني فغطّني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني ، فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء فأخذني فغطّني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني ، فقال «إقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الانسان من علق . إقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم. علم الانسان مالم يعلم »،

(٢) العلق : ٣ ــ ٥
(٣) المكتبات في الاسلام ص٢٧
(٤) ابن هشام : السيرة ١٥٥/١

فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ترجف بوادره (١) حتى دخل على خديجة فقال : زملوني ، زملوني فزملوه حتى ذهب عنه الروع ...»(٢) فهذه الواقعة ناطقة بأهمية القراءة من وجهة نظر القرآن ، او قل من وجهة نظر الاسلام ؛ اذ ان القرآن المصدر الأساس لتعاليم الاسلام . وهذا الأمر الالهي الذي ورد على لسان الملك ؛ بالقراءة ، يشعر دون شك بأهميتها ، ويفتح باباً لتعلمها ؛ لأنها ، إذا وردت موجهة إلى النبي (ص) بصيغة الطلب « اقرأ» فهي إلى من دونه ممن آمن برسالته أولى ؛ اذ هم اكثر منه حاجة إلى القراءة والتعلم لأنه يوحى اليه ، وهم يكتسبون العلم بالتحصيل اكتساباً ، وينالونه بطلبه كداً. وإذا يأمر القرآن النبي بالقراءة ، يقرن ذلك باسم ربه ، ويختار لذلك لفظه الرب دون بقية الألفاظ الدالة على الذات الالهية من مثل : «الله»و«الخالق» و « الباریء» ونحوها . وفي هذا الاقتران اللفظي اشعار بأن القراءة التي أمر بها النبي (ص) إنما هي للتربية والتعليم وليست للتعليم فحسب (٣) ؛ اذ أصل الرب في اللغة « التربية ، وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حد التمام ، يقال : ربه ورباه وربّبه» (٤) ، ولهذا عده الراغب مصدراً مستعاراً للفاعل ،وبين أن له خصوصية في الاستعمال ، وذلك بأن « لا يقال الرب مطلقاً إلا لله تعالى المتكفل بمصلحة الموجودات .. وبالاضافة يقال له ولغيره » (٥) . وايضاً فإن هذه الآية :« اقرأ باسم ربك ..» ونحوها من الآي التي تضيف التعليم إلى الله ، كآية الكهف :

«فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً » (٦). تفيد أن علم الانسان ليس علماً ذاتياً ، بل هو علم مكتسب ، لتحصيل الانسان

(١) البوادر : جمع بادرة ، وهي اللحمة التي بين العنق والكتف .
(٢) صحيح مسلم ٩٧/١ باب بدء الوحي إلى رسول الله (ص) .
(٣) قارن بالتصوير الفني بالقرآن لسيد قطب ص ١٩ .
(٤) و(٥) الراغب : مفردات القرآن ص ١٨٩
(٦) الكهف : ٦٥

فيه سبيل ،والارادة الالهية فاعلة في هذا العلم ،لإيصاله إلى من يشاء الله من عباده ، إما وحياً او إيحاء او كسباً وتحصيلا . وذلك يختلف بحسب ماهية الفرد . إن كان نبياً او رجلا صالحا او انسانا عاديا .

وحين قرن القرآن التعليم بالقلم ، اذ قال : « اقرأ وربك الأكرم الذي علّم بالقلم »فإنما لفت الانسان إلى أهمية القلم وما فيه من فائدة في تطوره الفكري والعلمي . وخاصة أنه جعله في سياق بيان تطور الانسان الجسمي من علق حتى يبلغ الكمال والنضج ، وذلك في قوله :
« خلق الانسان من علق » . فالبدايتان متساويتان ومتناظرتان في السورة، من حيث إن العلق بداية تكوين الانسان الجسمي ، والقلم بداية تكوينه الفكري والعلمي .

وقد لفت ذكر القلم في السورة قدامى المفسرين،فقال قتادة : « القلم نعمة من الله عظيمة لولاه لم يقم دين ، ولم يصح عيش » (١) .
وذهب فريق من المفسرين إلى ان « الباء » في « باسم » زائدة(٢)، وقدروا الكلام في الآية :

إقرأ اسم ربك ، كما قال«سبّح اسم ربك الاعلى ». وفي رأينا أنها ليست زائدة ، بل هي أصيلة في التعبير ، والمعنى : اقرأ مفتتحاً باسم ربك ، أى : قل بسم الله ثم اقرأ (٣) فهذا هو الملائم لجو السورة ، وخاصة فاتحتها، اذ فيها أمر بالقراءة ، وهو أمر أعم من أن يختص بقراءة اسم الله وحده ، فضلا عن ان عدم التقدير — باتفاق النحاة البصريين والكوفيين — أسلم من التقدير. وحمل الكلام على قراءة القرآن أولى من حملة على قراءة اسم

---

(١) الطبرسي : مجمع البيان ١٨٦/٣٠.

(٢) ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن ص ٢٤٨ ،والطوسي : التبيان ٣٧٩/١٠ ،والطبرسي : مجمع البيان ٣٠ / ١٨٤ .

(٣) قارن بالكشاف للزمخشري٣٤٩/٣.وقال الطبري: إقرأ يامحمد بذكر ربك جامع البيان ٢٥١/٣٠، فحملها على الأصالة ، كما هو واضح .

الله ، اذ هو اكثر فائدة واعم نفعاً ، هذا إلى ان القرآن مشتمل على اسم الله، فقراءته قراءة لهذا الاسم المبارك .

وبعد آيات (العلق) الحاثة على القراءة ، توللت آى القرآن ، التي تحمل هذا المعنى معبرة عنه بألفاظ وعبارات متنوعة ، كالقراءة والتلاوة والترتيل .

وكلها تدعو إلى هدف واحد هو نشر هذا الكتاب المبين بين الناس بقراءته، ودعوتهم إلى مافيه من هدى وخير . من ذلك قوله تعالى :

« وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث » (١) .

وقوله :

« واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق » (٢) « واتـــل عليهم نبأ نوح » (٣)

وقوله :

« ورتّل القرآن ترتيلاً » (٤) .

ولما كان الحث على القراءة ذا أثر كبير في محو الأمية الأبجدية الحضارية لدى الفرد المسلم فقد رغّب القرآن المؤمنين في قراءة القرآن وتلاوته ، ووعدهم بالثواب الجزيل ، وصاغ ذلك بأسلوب مجازى رائع فقال :

« ان الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وانفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور » (٥)

ويلحظ هنا أن القرآن أشعر المؤمن بأن التلاوة عبادة ، وذلك أنه عطف عليها أهم عبادة في الاسلام ، وهي الصلاة ، وفي هذا ما فيه من التحفيز على قراءة القرآن ، او قل : تعلّم قراءته لمن لم يكن قارئاً كاتباً .

بل إنه ليجعل هذه التلاوة أمنية ترد في دعاء أبي الأنبياء إبراهيم ، يدعو بها لأهل الحرم الآمن « مكة »، فيقول :

---

(١) الاسراء : ١٠٦ (٢) المائدة : ٢٧ (٣) يونس : ٧١ (٤) المزمل : ٤
(٥) فاطر : ٢٩ .

« ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ...» (١) .

بل ان القرآن ليفصح عن أهمية هذه التلاوة، وأثرها الحاسم الفعال في حياة الأمة ، حين يصف الرسول بأنه مبعوث من الله ، ويصف المبعوث اليهم بأنهم أميون ، ويذكر أنه بعثه اليهم ليتلو عليهم آي الكتـــاب المبين ، ويجعلهم اهل هذا الكتاب ، وحملته ، فيرتفعون بذلك إلى مقام سام ومحل رفيع . وبذلك يخرجهم من أمية كانت غالبة عليهم ، إلى علمية منتشرة فيهم ، يقدّرون مسؤوليتها حق التقدير ، ويولونها ما تستحق من عناية ووعي ، بعد ان نكل عن ذلك بنو إسرائيل ، فصاروا لايحملون من مسؤولية العلم، الا ثِقل الكتب والاسفار ، دون ان يعلموا ما فيها ويعملوا بتوجيهاتها ، كالحمار يحمل أسفاراً (٢) .

وإذا وصل القوم إلى هذا الحد من الجهل ، وعدم الالتزام بقضايا العلم التي كان عليهم تحملها ، فقد بات من الضروري أن تحملها أمة توفي بالعهد، وتقدر المسؤولية ، فكانت الأمة العربية . ولذلك جعلها الله من نعمه عليهم اذ قال :

« ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » (٣)

بعد قوله :

« هو الذى بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيّهم ويعلمهم الكتابَ والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين ..» (٤) .

وقد روى عن مجاهد وقتادة وغيرهما من قدامى المفسّرين(٥) ، أن المراد بالأميين في الآية التي أوردنا ، العرب . لأنهم كانوا في الاعم الأغلب

(١) البقرة : ٢١٩ .
(٢) انظر بيان ذلك في الآية (٥) من الجمعة .
(٣) الجمعة : ٤ .
(٤) الجمعة : ٢ .
(٥) انظر الطبري : جامع البيان ٢٨ / ٩٣ – ٩٤ .

أمة أمية لا تكتب ولاتقرأ ، ولم يبعث اليهم نبي . وقيل (١) : إن المراد بذلك اهل مكة ، لان مكة تسمى أم القرى . والوجه الاول اقوى فيما نرى لقول النبي (ص) في الحديث الصحيح الذي رواه البخارى (٢) : «إنّا أمة أمية لانكتب ولانحسب الشهر هكذا وهكذا »وهو مارآه أكثر المفسرين كالطبري (٣) والطوسي (٤) والزمخشري (٥) والطبرسي (٦) وقال ابن حجر (٧) في شرحه لهذا الحديث : « وقيل للعرب أميون ، لأن الكتابة كانت فيهم عزيزة ، قال تعالى :«هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم». وقال ابن كثير (٨) ،في أثناء حديثه عن تاريخ الكتابة عند العرب : « وقد كانت الكتابة في العرب قليلة جداً ». وعبارة « أنا» بصيغة الجمع تشعر بأن المراد أعم من ان يكون الرسول وحده،أو أهل مكة وحدهم،ومن حملها على أن المراد بها النبي (ص) وحده فقد أبعد ، اذ انه لم يكن يتحدث عن نفسه بصيغه الجمع الدالة على التفخيم والتعظيم ، وذلك لما عرف عنه (ص) من التواضع والبعد عن المبالغة في تفخيم الذات ومن تصفح اقواله في كتب الحديث وغيرها تبين له ذلك بجلاء. وإذاً فلم يبق الا حمل الأمية في الآية وفي الحديث ، على أمية العرب التي كانت غالبة عليهم . وخاصة في البيئة البدوية ، أما البيئة الحضرية فالحال فيها أحسن ؛ لتطور الحياة الاقتصادية والاجتماعية فيها . وقد كانت الكتابة أكثر انتشاراً في مكة من غيرها ، لكونها مركزاً تجارياً ، والتجارة بطبيعتها تحتاج إلى التدوين وكتابة

(١) الطوسي : التبيان في تفسير القرآن ٤/١٠
(٢) صحيح البخاري ٢٨/٥ — ٢٩ بشرح ابن حجر
(٣) جامع البيان ٩٣/٢٨
(٤) الطوسي : التبيان ٤/١٩
(٥) الكشاف ٢٢٨/٣ — ٢٢٩
(٦) مجمع البيان ٦٩/٢٨
(٧) فتح الباري ٢٨/٥
(٨) فضائل القرآن ص ٢٦

العقود والديون وأثمان السلع ،وما اليها. ولو تأملنا في الآية الكريمة لوجدناها تجمع بين القراءة المستفيدة والتعليم الملتزم ، اذ ورد فيها اولا قوله : « يتلو عليهم آياته» وورد فيها بعده : « ويعلمهم الكتاب والحكمة » ، وفُسّر الكتاب والحكمة بالقرآن والسنة (١) ، كما فسرا بالقرآن والشرائع . وقال الطوسي (٢) « والحكمة تعم الكتاب والسنة ، وكل ماأراده الله ، فان الحكمة هي العلم الذي يعمل عليه ، فيما يخشى او يحبب من أمر الدين والدنيا» . وبذلك كان هذا التعلم حضارياً في صورته وإطاره ، لانه يراد به تكوين الانسان المتعلم تكويناً يستفيد منه في دينه ودنياه ، كما لاحظ الطوسي في كلامه الذي أسلفنا بيانه . وهذا الفهم متساوق مع روح القرآن وتوجيهاته، اذ هو يحث على الجمع بين خير الدنيا والآخرة ، كما قال : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنسَ نصيبك من الدنيا » (٣). وقد وقف المفسرون على عبارة « منهم» في قوله تعالى : « وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم » (٤) وذلك في سياق قوله : « هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم ...» ،فردوا الضمير في هذه العبارة إلى الأميين الأولين في صدر الاسلام. قال مجاهد وابن زيد: هم كل مَن بعد الصحابة إلى يوم القيامة ، فان الله بعث النبي منهم وشريعته تلزمهم ، وان لم يلحقوا بزمان الصحابة (٥) .

فاحتملوا أن هذا التأثير التعليمي سيتطاول به العمر إلى جميع الأجيال التي ستأتي وان لم تدرك النبي (ص) .

وقال النسفي (٦) : « وآخرين منهم » مجرور معطوف على الأميين ، يعني

---

(١) الطبري جامع البيان ١/٥٥٧ والطوسي: التبيان ١٠/٤ والنسفي: مدارك التنزيل ٤/٢٠٤

(٢) التبيان ١٠/٤

(٣) القصص : ٧٧

(٤) الجمعة : ٣

(٥) الطوسي : التبيان ١٠/٤

(٦) مدارك التنزيل ٤/٢٥٥

أنه بعثه في الأميين الذين على عهده وفي آخرين من الأميين . « لم يلحقوا بهم » ، أي : لم يلحقوا بهم بعد وسيلحقون بهم ، وهم الذين بعد الصحابة رضي الله عنهم ، اوهم الذين يأتون من بعدهم إلى يوم الدين ... » . واحتمل أيضا أن يكون « آخرين » منصوباً بالعطف على الهاء في «ويعلمهم » ثم قال : « أي ويعلمهم ويعلم الآخرين ، لأن التعليم اذا تناسق إلى آخر الزمان كله مستنداً إلى اوله ، فكأنه هو الذي تولى كل ماوجد منه » . أو بعبارة أخرى إن هناك مجازاً في التعليم يدل عليه « يعلمهم » ، وذلك بأن يكون معلماً لكل الأجيال – مجازاً – مازالت البداية منه ، والتعليم الأول هو أساسه. ويجري هذا مجرى وصف النبي (ص) بالكتابة ، في قولهم مثلا « كتب رسول الله كتاباً بين المهاجرين والانصار » (١) ، مع أنه لم يباشر الكتابة بنفسه ، لأميته ، وإنما أمر من يكتب له كتبه ورسائله التي بعث بها إلى من دعاه إلى دينه ، وهذا أمر لامنازعة فيه ، اذ لاخلاف في أنه اتخذ كتّاباً لهذه المهمات وغيرها .

(٤)

القسَم بالقلم :

لم يكن العرب ليبخسون القلم حقه في يوم من الأيام ، وانما كانوا يدركون بحكم فطرتهم وحاجتهم قيمته وفضله . ولأهمية الكتابة عندهم أعطوا المكتوب قوة المسموع . أو بعبارة أخرى ، اعطوا الحروف الصامتة قوة الأصوات المنطوقة ، فقالوا : « القلم أحد اللسانين » ، واليه اشار ابن القيم (٢) اذ قال : « تولد الحروف المسموعة عن اللسان ، كتولد الحروف المكتوبة عن القلم» .

وجاء القرآن الكريم ليؤكد هذه الحقيقة ، بل ليعطيها حقها الكامل من الأهمية ، وآية ذلك أنه أقسم به في فاتحة سورة سميت « سورة القلم » فقال : «ن ، والقلم ومايسطرون . ماأنت بنعمة ربك بمجنون » (٣)

(١) انظر ابن هشام : السيرة ٢/٣٤٨
(٢) التبيان في اقسام القرآن ص ١٥٠
(٣) القلم : ١ – ٢

وواضح أن القسم الرباني بالقلم أمر يلفت النظر ، اذ فيه غاية التكريم والاعظام له . لأن الخالق لايقسم الا بشيء له اهميته او تأثيره في حياة الانسان الحسية والنفسية، كقسمه بعناصر الطبيعة وظواهرها المختلفة من مثل الشمس والقمر والليل والنهار والضحى ونحوها . وقد لفت هذا القسم بالقلم تأمل الجاحظ ، فبين في ضوء تأمله فيه أن الكتابة أو قل القلم أبلغ من اللسان ، واكثر فاعلية في حياة الناس العلمية والعملية . فقال بروح العالم الأديب : «فلذلك وضع الله عز وجل القلم في المكان الرفيع ، ونوه بذكره في المنصب الشريف ، حين قال : « ن والقلم ومايسطرون » ، فأقسم بالقلم كما أقسم بما يخط بالقلم ، اذ كان اللسان لايتعاطى شأوه ولايشق غباره ، ولا يجرى في حلبته ، ولايتكلف بعد غايته ... » (١)

ووقف المفسرون القدامى يتأولون القسم بالقلم في القرآن ، ويبحثون عن سره فيه. فنرى مفسراً أديباً هو أبو علي الفضل الطبرسي (٢) يقول : « والقلم الذي يكتب به، أقسم الله به لمنافع الخلق فيه ، اذ هو أحد لساني الانسان، يؤدي عنه مافي جنانه ، ويبلّغ البعيد عنه ، مايبلّغ القريب بلسانه ، وبه تحفظ أحكام الدين ، وبه تستقيم أمور العالمين . وبيان اللسان تدرسه (٣) الأعوام، وبيان الأقلام باق على مر الايام . وقيل: ان قوام أمور الدين والدنيا بشيئين : القلم والسيف ، والسيف تحت القلم » .

ولفت المفسرين اقتران الحرف المقطع (ن) بالقسم بالقلم وما يسطرون . ونحن نهمل هنا ماقيل في نون من أنه « الحوت الذي عليه الأرضون»(٤) ، اذ هو من الاسرائيليات التي دست في التفسير ، وينبغي استبعادها كلية منه ، لأنها كثيراً ماتؤدي إلى التشكيك واللبس وقلب الحقائق العلمية ، الثابتة — اليوم خاصة — بالأدلة القاطعة . ولايسوغ تفسير نون بهذا التفسير روايته

---

(١) الجاحظ : الحيوان ١ / ٤٨ .
(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن ٢٩ /٢٢
(٣) تمحوه ، وتزيل اثره
(٤) تنظر الروايات في جامع البيان للطبري ٢٩/ ١٤

عن جماعة من كبار المفسرين الأوائل مثل عبدالله بن عباس ومجاهد بن جبر ومقاتل بن سليمان، وان كان قد روي عن مفسر ضعيف هو السدي. فنحن نقطع أن نسبة هذا التأويل إلى ابن عباس ومجاهد في الأقل ليس صحيحاً.

ومثله في البعد — وإن لم يبلغ حد الخطأ العلمي والأساطير — ماروي من ان نون هو الحوت في البحر ، الذي هو من آيات الله ، اذ خلقه تعالى في الماء ، فاذا اخرج منه مات ، فهذا التأويل وان جاء موافقاً لما ورد في اللغة من أن النون في كلام العرب يرد بمعنى الحوت (١) الا أنه ضعيف من وجهين:

أحدهما — انه غير ملائم لسياق الآيات ، اذ ماعلاقة الحوت بالقلم ، وما التناسب بينه وبين ماورد بعد القلم أيضا من الكتابة أو المكتوب ، وهو قوله تعالى : « وما يسطرون » ؟

وثانيهما — ان هذه الحروف — المقطّعة — لاينبغي المجازفة بتفسيرها بأي وجه كان ، اذ الاحسن المختار أن تحمل على أنها رموز لاطاقة للبشر على ادراك ومعرفة ماهيتها وحقيقتها (٢) .

ولعل ماروي عن الحسن البصري وقتادة والضحاك من أن المراد بـ (نون) الدواة ،أقرب من التأويل الأول الذي أوردناه ،اذ هو يناسب السياق ويلحظه، لاقتران الدواة بالقلم عند الكتابة عملياً . وقد ورد في هذا المعنى ماهو اكثر أهمية مما حكيناه،اذ روي عن الامام محمد الباقر (ت١١٣ هـ) أنه « نهر في الجنة ، قال الله له كن مداداً فجمد وكان ابيض من اللبن وأحلى من الشهد . ثم قال للقلم : اكتب ، فكتب ماكان وما هو كائن إلى يوم القيامة »(٣)

وواضح أن هذا التأويل يفسر هذه الحروف ، ويجعل القلم الوارد في الآية قلم اللوح المحفوظ دون القلم العادي الذي يكتب به الكاتبون . وما روى عن النبي (ص) من ان نون لوح من نور (٤) ، يذهب بالقلم هذا

---

(١) ابن منظور : لسان العرب ١٧ /٢١٦ مادة (نون) .
(٢) وهذا هو الوارد عن الأكثرين من الصحابة والتابعين ومن تبعهم . ينظر السيوطي : الاتقان٣/٢
(٣) الطوسي : مجمع البيان ٢٩/ ٢٢
(٤) الطبري : جمع البيان ٢٩ / ١٥ — ١٦

المذهب ، اذ يبدو أن المراد باللوح هنا اللوح المحفوظ الذي تكتب فيه ارزاق الناس وأعمالهم وآجالهم ... وهو الذي ورد ذكره في القرآن « في لوح محفوظ» اذ هو حري بأن يوصف بهذا الوصف الرائع : « لوح من نور ».

ومهما يكن من أمر هذه الروايات في نون وفي القلم فان الذي لاشك فيه هو أن الله عز وجل أقسم بالقلم ، وقسمه به ملفت مثير ، يدعو إلى النظر اليه بإجلال وإكبار ، لأن القسم بالقلم صدر عمن «علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم » ، ويلحظ من سورة القلم أيضاً ، أن القرآن أعطى القلم استقلالا وميزة وتفرداً ، حين أقسم به أولا ثم عطف عليه مايكتب ويخط بالقلم ثانياً وهذا مالفت الجاحظ ، في موازنته بين القلم واللسان ، اذ بين أن القلم لايحتاج إلى قرينة للبيان ، بل هو يؤدي المعاني بذاته . على حين يحتاج اللسان إلى ضرب من القرائن المتباينة . يقول : « والقلم مكتف بنفسه لايحتاج إلى ماعند غيره ، ولابد من بيان اللسان من أمور : منها إشارة اليد » . (١) ويلحظ في بعض ماورد في اسباب النزول من روايات أن سورة (ن) نزلت بعد سورة إقرأ . روى الطبرسي (٢) بسنده عن عبدالله بن عباس أنه قال : « أول مانزل بمكة اقرأ باسم ربك ثم ن والقلم » . وهذا التساوق في نزول السورتين بهذا الترتيب وعدم وجود فاصل بينهما في النزول — إن صحت الرواية من حيث السند — يشعر أن الأمر هام ، وأن هنالك الحاحا في هذه المسألة الضرورية في حياة الناس، ألا وهي مهمة التعلم والتعليم والكتابة والقراءة . فالرواية السالفة عن ابن عباس تقرن بين القراءة في سورة (اقرأ) ،او كما تسمى أيضا (العلق)،وبين الكتابة في سورة (ن).وكلتاهما من غير ريب تنفيان الأمية،وتحثان على القراءة والكتابة ، اذ في الأولى أمر بالقراءة ، وفي الثانية قسم بالقلم والكتابة وفي ذلك رفع لشأنهما ، ومن ثم تحفيز على العناية بهما . وخاصة حين يرى قارئ القرآن أن ربه العظيم ، يعنى كل هذه العناية

(١) الجاحظ : الحيوان ١/ ٥٠
(٢) مجمع البيان ٢٩/ ١٣٩

بالتعليم ، إلى الحد الذي يقسم فيه سبحانه بالأداة الأولى للتعلم والتعليم وهي القلم .

وقد تميز القلم بميزة خاصة في التصور الاسلامي ، لا نجد لها مثيلا في كتب العهديين (١) ، اذ كان له السبق ، في هذا التصور ، على كل ماخلق الله وفطر من خلقه ، ويذكر الرازي (٢) ذلك عن الامام جعفر الصادق (ت ١٤٨ هـ) ، وهو أنه قال : « أول ماخلق الله القلم ، فقال له اكتب فكتب ماكان وما هو كائن إلى يوم القيامة» .

ونجد صدى هذا كله في كتابات من عرضوا لحديث القلم في القرآن ، فهذا ابن قيم الجوزية يفطن إلى ذلك ، فينبري يعدد فوائده بصورها الحضارية المتنوعة: الدينية والاجتماعية والنفسية والسياسية ، فيقول وهو يحلل القسم في الاية الكريمة :

«اقسم سبحانه بالقلم وما يسطرون ، فأقسم بالكتاب وآلته ، وهو القلم الذي هو احدى اياته وأول مخلوقاته الذي جرى به قدره وشرعه ، وكتب به الوحي ، وقيد به الدين ، وأثبتت به الشريعة ، وحفظت به العلوم ، وقامت به مصالح العباد في المعاش والمعاد ، فوطدت به الممالك ، وأمنت به السبل والمسالك ...» ، إلى ان قال : « وبالأقلام تدبر الأقاليم وتساس الممالك » (٣) .

(٥)

وصف ما يتصل بالكتابة بالكرم

ومما يشعر قاريء القرآن بفضل الكتابة والكاتبين ، أن الله وصف الملائكة الذين يكتبون أعمال الناس بأنهم كرام كاتبون ، قال تعالى :

« كراماً كاتبين . يعلمون ماتفعلون » (٤)

---

(١) اي : (العهد الجديد) و (العهد القديم)

(٢) الزينة ٤٤/١ (باب القلم)

(٣) ابن القيم : التبيان في اقسام القرآن ص ١٥٠

(٤) الانفطار : ١١ — ١٢

كما وصف الملائكة الذين ينسخون الصحف المنزلة ويكتبونها بأنهم : «كرام بررة » (١) ، وأيضاً أضاف الى الصحف صفحة التكريم والتطهير بقوله : «كلا إنها تذكرة . فمن شاء ذكره . في صحف مكرمة . مرفوعة مطهرة » (٢) وهذا دون شك محفز واضح على احترام وإجلال الكتابة والكاتبين ، وبالتالي الرغبة في تعلم الكتابة .

وأظهر من ذلك ، أن القرآن قرن القراءة والكتابة بكرم الخالق ، في أول سورة نزلت من كتابه ، وأورد ذلك بصيغة « أفعل» الدالة — من غير مفاضلة بينه وبين أحد من خلقه — على فضله على بني الانسان ، ذلك الفضل الذي لاينبغي أن يكفر ، فقد قال تعالى في سورة (العلق) التي أوردنا آيات منها سالفاً :

« اقرأ وربُّكَ الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلمْ »
فأي كرم بعد هذا أكثر وأوفر من هذا الكرم الرباني الجزيل ، بتعليم الانسان وتبصيره سبل الحق والخير والعلم ، عن طريق التعليم بالقلم ؟ !
ولاحظنا من استقراء الآي التي وردت فيها مادة (كرم) في القرآن ، انه لم يجىء بصيغة (أفعل) منها إلا ما ورد في هذا الموضوع ، موصوفاً به الله بلفظة الرب . وهذا يشعربما للموضوع الذي وردت في سياقه هذه اللفظة من أهمية وعطاء ، إذ(الأكرم) لايمنح إلا ما هو جدير بكرمه من العطاء والخير . وهذه مسألة هامة في بيان فضل القلم والكتابة .
ويقترن التعليم وما يتعلق به من البيان ، والافصاح عما في النفس باللسان ، بالرحمة الالهية البالغة في أحد المواضع من القرآن . فاذا تلونا سورة (الرحمن) ألفيناها تفتتح باللفظة الدالة على غاية الرحمة الربانية وشمولها ، وهي لفظة

---

(١) عبس : ١٦
(٢) عبس : ١١ — ١٤

«الرحمن »التي لايوصف أو يتسمى بها الا الله وحده (١) . ثم يتلوها في السياق ما يدل على هذه الرحمة البالغة.وأول ما يتعلق بها من الآيات والدلائل تعليم القرآن ، ثم خلق الانسان ، وتعليمه الإفصاح عما في النفس والفكر بألة النطق : اللسان . ويتجلى ذلك في قوله تعالى :

«الرحمن . علم القرآن . خلق الانسان . علمه البيان »(٢) .

ولما كان التعليم يرتبط باللسان ارتباطاً وثيقاً ، من حيث إنه آلة النطق التي يتوصل بها الى المعنى المراد في نفس المتكلم ، وينقل ذلك المعنى بها – عن طريق اللفظ – الى السامع ،فان القرآن جمع بينهما هنا في سياق واحد، كما هو ظاهر من النص الذي أوردناه . إذ قال اولا :«علم القرآن» ، ثم قال بعد ذلك :«علّمه البيان » .

ومن الاعتزاز بالكتابة وأهميتها ، أن رسالة سليمان التي بعثها الى ملكة سبأ ، وصفت بأنها رسالة كريمة ، وذلك ما ورد على لسان هذه الملكة أذ تقول :

«يا أيها الملأ اني ألقي الي كتاب كريم . انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين » (٣)

وهذا لاشك يشعر بقيمة الكتابة ، وتأثير الكتاب في النفس ، ويدل على أن الرسالة المكتوبة والشيء المكتوب أوقع في النفس من الكلام المنقول . وفي هذا يقول الجاحظ (٤) معلقاً على تلك الحادثة التاريخية :

«قال سليمان: « اذهب بكتابي هذا فألقه اليهم » ، وقد كان عنده من يبلّغ الرسالة على تمامها ، من عفريت ومن بعض من عنده علم من الكتاب ، فرأى ان الكتاب أبهى وأنبل وأكرم وأفخم من الرسالة عن ظهر لسان، وان احاط بجميع ما في الكتاب .وقالت ملكة سبأ : «يا أيها الملأ اني ألقي اليّ كتاب كريم »فهذا مما يدل على قدر اختيار الكتب »يقصد الرسائل .

---

(١) الطبري : جامع البيان ١/٥٧، ٥٩، ورواه عن الحسن البصري ايضاً في ١/ ٥٩ .

(٢) الرحمن : ١ – ٤

(٣) النمل : ٢٩ – ٣١

(٤) الحيوان ١/ ٩٧

وهكذا نجد القرآن قد أضفى صفة الكرم على الكتابة وما يتعلق بها من الكتب والكاتبين فأشعر بأهميتها في حياة الانسان ، ومن ثم عمل على التحفيز على تعلمها .

الامر بالكتابة

وثمّ محفز آخر مؤثر ورد في القرآن ،ذو أهمية كبيرة في حياة المسلمين العملية،وفي الحث على محو الامية . ألا وهو الأمر بالكتابة في أحوال معينة، وبخاصة فيما له وشيجة بناحية مالية اقتصادية دائرة بين المسلمين ،لها مساس بحياتهم اليومية، أو له وشيجة بناحية مالية اجتماعية ، كالدين ، ومكاتبة المملوكين ونحوهما .

فالكتابة عند الدين ضرورة ، وقد نظمها القرآن تنظيماً دقيقاً يحمي به حقوق الطرفين : الدائن والمدين . ولو استقربنا الآيات التي وردت فيها مادة (كتب)، لوجدنا في جملتها آية تتحدث بالتفصيل عن الكتابة عند الدين الى مدة معينة معلومة ، وهي الآية التي تبدأ بقوله تعالى .

« يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمّى فاكتبوه ... » (١)

ونجد الكتابة في مثل هذا النوع من الدين،أمراً مفروضاً غير متروك للاختيار عند فريق من الفقهاء، وعند فريق آخر مندوباً غير واجب (٢) . وقد جعل القرآن كاتباً عدلاً بين الطرفين المتداينين ، وأمره أن يكتب الدين الذي بينهما ، إذا ما دعي إلى الكتابة،والا يتثاقل أو يأبى : «وليكتب بينكم كاتب العدل (٣) » . وبيّن القرآن أن أداء الكاتب لهذا الواجب، وفاء منه لفضل ربه عليه ؛ إذ علّمه أن يكتب ، بل أن يكتب بالعدل. فما عليه إذاً الا أن يكتب كما علّمه الله : « ولا يأبَ كاتب أن يكتب كما علّمه الله(٤)»

ثم إن القرآن حثهم على كتابة هذا الدين الى مدته المحددة ، صغيراً كان

(١) البقرة : ٢٨٢

(٢) ينظر الوجهان في : التبيان للطوسي ٣/ ٣٧١ والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢/ ١١٩٠

(٣) البقرة : ٢٨٢

(٤) البقرة : ٢٨٢

أو كبيراً . وبيّن أن كتابته أعدل عند الله ، وأصوب للشهادة ، وأقرب الى الثقة وعدم الارتياب :

« ولاتسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلك أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا (١) »

ويلحظ في صيغة الطلب : « فليكتب » ، بعد قوله : «ولايأبَ كاتب أن يكتب »، ضرب من التوكيد المناسب للمقام . إذ كان النهي عن إباء الكتابة دالاً على وجوبها ، فجاء قوله: « فليكتب» معززاً له ومؤكداً إياه . وقد علله الطبرس تعليلا ذا وشيجة بالحالة الثقافية التي كان عليها الناس أول عهدهم بالاسلام ، فقال : «فليكتب» : أمر للكاتب، أي : فليكتب الصك على الوجه المأمور به . وكانت الكتبةُ على عهد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم، فيهم قلة . فلذلك اكد بقوله: «فليكتب» ؛إذ الجمع بين الأمر بالشيء والنهي عن تركه أدعى الى فعله من الاقتصار على أحدهما » (٢) .

وهناك نوع آخر من الكتابة ،رغّب القرآن فيه وحث عليه ؛ ألا وهو مكاتبة المملوك على مال معلوم محدد يؤديه إلى مالكه ،لقاء تحريره من رقه، فاذا أداه صار حراً طليقاً .وهذا لاشك ذو مغزى اجتماعي كبير ،اذا علمنا أن الرق كان شائعاً في الجاهلية ،فأراد الاسلام أن ينهيه بطرق مختلفة ، فجعل المكاتبة إحدى هذه الطرق . فقال تعالى :

«والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً (٣)».

وليس من شك في أن الحث على الكتابة والمكاتبة بين طرفين، لسبب من الأسباب، كالذي رأيناه في كتابة الدين ومكاتبة المملوكين ، له أثره الايجابي في شيوع الكتابة وانتشارها، وبخاصة في البيئة التي تغلب عليها الأمية الأبجدية؛ إذ يكون تعلمها ضرورة تمليها الحاجة .

---

(١) البقرة : ٢٨٢

(٢) الطبرسي : مجمع البيان ٣/ ٣٧٧

(٣) النور : ٣٣

(٧)

إظهار فضل المعلم على المتعلم :

وثم محفز آخر في القرآن ، له أثره النفسي على المعلم خاصة ، من حيث إنه الطرف الاول في العملية التعليمية .فقد أشعر القرآن أن للمعلم فضلا على من يعلمه، وإذا كان المعلم خالق هذا الكون ومدبره ، كان في ذلك من الفضل مالا يقدوه مقدر ولا يحصيه محص. وهذا يتجلى في تذكير الله نبيه محمداً (ص) بتعليمه اياه تعليماً تميز به على غير من الناس بحكم منصبه الديني — نبياً.

فإذا كانت الأمية الأبجدية لم تؤثر على شخصية الرسول وعلمه، من حيث إنه نبي مرسل يوحى إليه، فإن الله لم يشأ أن يدع نبيه خلواً من ثقافة حضارية تلائم منصبه الهام ، وتكون له قوة في مواجهة تحديات الدعوة وأعباء الرسالة، كما تكون مادة معطاء للتغيير الفكري والنفسي والسلوكي في المجتمع الجديد. ولأهمية هذا التعليم الحضاري، كان الله تعالى يذكر نبيه به ، ويشعره بأنه من منته عليه فيقول :

« وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً » (١).

ويوحي إليه الا يكتفي من العلم بما تعلم ، بل عليه ان يطلب المزيد منه ، فيقول له « وقل رب زدني علماً » (٢) ، وهي الآية التي تجري على ألسنة أهل العلم ، ويكتبها الناس تيمناً فيضعونها في أماكن بارزة من بيوتهم أو محلاتهم التجارية أو دوائرهم الحكومية ، فكأنهم اذ يفعلون ذلك يرددون ماكان يردده الرسول (ص) ، ويطلبون ماكان يطلبه. وبهذا البيان وضع ، القرآن اللبنة الأولى الأساس في حياة الأمة الاسلامية العلمية ؛ اذ قرر أن التعليم الثقافي والحضاري أمر هام في حياة الانسان ووجوده ، حتى لو كان هذا الانسان نبياً يوحى اليه ويتلقى تعاليمه الدينية من ربه .

إنها بذرة هامة محفزة تلك التي بذرها القرآن ، وهو يصرح بهذا البيان. فهذه

---

(١) النسـاء : ١١٣

(٢) طه : ١١٤

مسألة ، وثمة مسألة أخرى في غاية الأهمية ، تتعلق بالسن المناسبة لمحو الأمية الحضارية والثقافية . فالنبي العربي لم يتلق هذه الثقافة الموحى اليه بها في سن مبكرة من حياته ، وهي السن التي من المعتاد أن يتلقى فيها الدارس علومه . وانما تلقاها في سن متأخرة نسبياً ، وهي سن الأربعين ، اذ حمل الرسالة السماوية في تلك السن ، كما هو ثابت تاريخياً ، بكل مافيها من عطاء حضاري شامخ عريض . ومع هذا العمر التعليمي ، كان الرسول آية في النشاط والوعي في تقبل هذه الثقافة وهضمها ، بل نشرها بعد ذلك وإذاعها بين تلاميذه .

فقد كان هذا المتعلم معلماً في نفس الوقت ، فهو يتلقى من ربه ليعلم أصحابه مما علمه الله ، بحيث صار ذلك لب بعثته اليهم ورسالته فيهم ،وتدل على ذلك بكل وضوح آية الجمعة (١) :

« هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين » .

ولايقف بيان القرآن لفضل التعليم والمعلم عند حدود الرسالة المحمدية ، بل هو يرجع به إلى اعماق التاريخ الانساني ، إلى قصص الأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين ، فنرى القرآن يذكّر بالأنبياء الأوائل وتعليمهم ، واقرارهم بفضل الله — المعلم لهم — ويبدو ذلك في اقرار سليمان عليه السلام اذ يقول :

«يأأيها الناس عُلّمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء ان هذا لهو الفضل المبين»(٢)

ونتبين هذا الشعور الذي يفيض بالامتنان والشكر للمعلم ، بهذا الدعاء الخاشع الوديع ، الذي يرفعه إلى ربه نبي كريم من انبياء الله ، هو يوسف الصديق ، اذ يقول : « رب قد آتيتني من الملك ، وعلّمتني من تأويل الاحاديث »

---

(١) هي الآية ٢

(٢) النمل : ٦

بل إن القرآن لينقل إلينا صورة رائعة، دالة على فضل المعلم على المتعلم، ناطقة بشعور المتعلم الفياض بذلك الفضل. هذه الصورة لها أثرها في التحفيز على التعليم، وفي خلق علاقة طيبة بين المتعلم والمعلم. وقد وردت تلك الصورة في سورة الكهف، بين موسى والخضر، وفيها يبدو فضل العالم على المتعلم في مواقف شتى ومناظر متعددة.

أولها: أن موسى يستأذن صاحبه الخضر في أن يكون تابعاً له، على أن يتعلم منه، اذ يقول له:

«هل أتبعك على أن تعلمن مما عُلِّمت رشداً»؟ وهـذا ماجعـل **قتادة** – المفسر التابعي – يستشعر أن موسى: «(٢)عظّمه بهذا القـول غاية التعظيم، حيث أضاف العلم إليه، ورضي باتباعه». (٣)

والثاني: أن الخضر طلب إلى تلميذه موسى أن يكون صبوراً على تحمل أعباء هذا التعلم وملابساته التي لاقبل له بها، فأعطاه العهد على أن يكون صبوراً، وألا يسأله عن شيْ ما – بناء على رغبة أستاذه – حتى يبينه له. ويدل على ذلك قوله تعالى: «قال إنك لن تستطيع معي صبراً. وكيف تصبر على مالم تحط به خبراً. قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً. قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً». (٤)

وبهذه النصوص وغيرها رسم القرآن صورة مشرقة للتعليم، وعلاقة المتعلم بالمعلم، وهي صورة يستشرف إليها كل جيل، في كل مكان وزمان.

(٨)

الاشادة بالعلم واهله:

ومما ينبغي التنويه به في هذا الصدد، إشادة القرآن بالعلم وأهله، وبيان مكانتهم الرفيعة عند الله وعند الناس. وهذا من غير ريب محفز نحو طلب العلم، وطلب العلم لابد له من بداية يبدؤها المتعلم، وأول مايبدأ به من ذلك أن يتعلم

---

(١) يوسف: ١٠١

(٢) الكهف: ٦٥

(٣) الطبرسي: مجمع البيان ١٥/١٨٥ – ١٨٦

(٤) الكهف: ٦٧ – ٧٠

حروف الهجاء ويخلع عن نفسه رداء الأمية الابجدية . ثم لايـزال يجـري في سن العلم ، ويتبارى في حلبته ، حتى يطرق أبواب الثقافة الحضارية التي تؤهله لأن يحيا حياة فكرية ونفسية سليمة هانئة ، مؤثرة في أسرته ومجتمعه . وهذا يؤدي بالنتيجة الى تقدم المجتمع بأسرة ، ورقية وتطوره ، بحيث لايكون متخلفاً عن ركب الحضارة العالمي .

ويلفت قارىء القرآن كثيرٌ من الآيات الدالة على الاشادة بالعلم وأهله ، والازراء بالجهل وأهله، من مثل قوله تعالى :

«هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون» (١).

إذ فيه تقابل بين شخصيتين: إحداهما ايجابية متفاعلة، والأخرى سلبية متخلفة،وأيّ تخلف أكبر من الجهل ؟ وكيف تستوي الشخصية المستنيرة ، والأخرى الجاهلة ؟. وآية فاطر(٢): « إنما يخشى الله من عباده العلماء »، وضعت العلماء في موضع رفيع ، ومنحتهم وعياً عميقاً وإحساساً مرهفاً. ذلك أنها قصرت خشية الله — حق خشيته — عليهم ، وخصتهم بذلك الفضل والارهاف في الشعور . قال الزمخشري (٣) في وقوفه عند هذه الآية: « إن الذين يخشون الله من عباده هم العلماء دون غيرهم » ، ومعنى هذا أن الجاهل بالله وبعظمته وبروعة ماخلق ، لايخشى الله؛ لأنه يعوزه ذلك الوعي العقلي والتحسس الوجداني، الذي يستشعره العالم بربه وبروعة موجوداته ، ويعزز هذا الفهم أن هذا التقرير والتوكيد جاء في أعقاب منظر مثير لافت من مناظر الطبيعة، ذات الألوان والعناصر المتعددة، فقد قال سبحانه أولاً بصيغة الاستفهام التقريري، مخاطباً نبيه الكريم، ومنبهاً الناس كافة:

« ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدَدٌ بيض وحُمرٌ مختلف ألوانها وغرابيبُ سودٌ. ومن الناس

---

(١) الزمر : ٩

(٢) هي الآية ٢٨

(٣) الكشاف ٥٧٦/٣

والدوابّ والأنعام مختلفٌ ألوانه كذلك »(٤) ، ثم قال « إنما يخشى الله من عباده العلماء» .

كل ذلك ورد في آية واحدة ، بدأت بلَفْتِ النبي (ص) وكلّ عاقل مميز ، إلى صفحة هذا الكون الرائعة الجميلة العجيبة، وانتهت بتقرير تلك الحقيقة المتعلقة بالعلماء، والتي بيناها آنفاً.

وجعل القرآن المعرفة الحضارية قرينة الأمانة في التأهيل للمنصب الممتاز. ووضع الرجل المناسب في المكان المناسب، وأجراه على لسان النبي يوسف في حواره مع ملك مصر، إذ قال:

«اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم» .(٥)

ووضع القرآن العلماء في موضع رفيع ، بل في أرفع موضع، حين جعلهم في سياق واحد مع شهادة الله وشهادة ملائكته بوحدانيته ، فقال :

« شهد الله أنّه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط» .(١)

فقال بدر الدين بن جماعة(٢) (ت٧٣٣هـ) في تعليقه على هذه الآية: (بدأ سبحانه بنفسه، وثنّى بملائكته ، وثلّث بأهل العلم ، وكفاهم ذلك شرفاً وفضلاً وجلالة ونبلاً » .

وأثنى القرآن على الراسخين في العلم ، وهم الذين ثبتت أقدامهم في أرضه، وتحققوا منه ، بحيث لاتعرض لهم شبهة فيه (٣). ووصفهم بالثبات وإصابة الحق والايمان ، سواء أكانوا من المسلمين أم من أهل الكتاب. فذكرهم عند حديثه عن الآيات المتشابهات فقال في المسلمين منهم :

« وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كلّ من عند ربنا»(٤) وقال في علماء اهل الكتاب :

(٤) فاطر ٢٧ — ٢٨
(٥) يوسف : ٥٥
(١) آل عمران : ١٨
(٢) ابن جماعة : تذكرة السامع ٥
(٣) الراغب : مفردات القرآن ص ٢٠٠
(٤) آل عمران :٧

« لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك من قبلك»(٥) فقدّم الراسخين في العلم على المؤمنين من أهل الكتاب ، في تصديقهم بكتب الله المنزلة .

وقرن القرآن أهل العلم إلى المؤمنين في الرفعة يوم الجزاء ، فقال :

« يرفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات »(٦)

فكان في هذا التعبير تحفيز على طلب العلم، وعاه المسلمون الأوائل حق الوعي، حتى إن عبدالله بن مسعود كان اذا قرأ هذه الاية يقول : « ياأيهاالناس افهموا هذه الاية ولترغبّكم في العلم » .(٧)

والآيات الدالة على فضل العلم والعلماء ومنزلتهم كثيرة في القرآن، اجتزأنا منها بما ذكرنا .

الفصل الثاني

محفزات محو الامية والاساليب التربوية في آثار النبي واصحابه

لو استقرينا محفزات محو الأمية والحث على التعلم في سيرة الرسول محمد (ص) وسيرة أصحابه ، لوجدناها كثيرة غزيرة متنوعة ، حافلة بالعطاء الثر والنفع العميم .

فقد كانت حياة النبي كلها – على امتداد سنيّها بعد النبوة – دعوة إلى العلم وتعلمه ، وتدونيه ونشره والانتفاع به ، فضلا على إكباره وإكبار حملته... وما إلى ذلك من ظواهر ايجابية دالة على ان رسالته كانت تسعى لجعل هذه الامة عالمة متعلمة ، تمنح ثمار جهودها أبناءَها ، وتحملها مع دعوتها العادلة إلى أبناء الارض جميعاً ، تبثه بينهم في أمـن ورخـاء وطمأنينة ، سالكة في ذلك سبل العلم الحقيقية ، من التحصيل والمثابرة والتحميص والمناقشة . حتى وجدنا هذا العلم الزخار يضرب بأمواجه سواحل فرنسا غرباً ، يصل إلى حدود الصين شرقاً، ونحن في يومنا هذا نجد في ذلك التراث الاصيل الضخم ، ادة

(٥) النساء : ١٦٢

(٦) المجادلة : ١١

(٧) الزمخشري : الكشف ٣/٢١٠ .

مثلى لاحياء حضارتنا من جديد ، وفتح باب العلم الذى يؤكد شخصيتنا ، ويعبّر عن زاهر معرفتنا. وسنبين في هذا الفصل من البحث ، أهم حوافز التعليم ومحو الامية ، التي تجلت في سيرة الرسول (ص) وأصحابه ، مما كان له أثر فعال في طلب العلم ونشره .

القسم الاول

محفزات محو الامية

(١)

التشجيع على محو الامية بفداء الاسرى :

كان النبي (ص) يعلم ان محو الامية الابجدية عن اصحابه ، يعني فتح باب التعلم لهم . لذلك لم يدخر وسعاً في ايجاد الوسائل الكفيلة بتحقيق هذا الهدف العلمي الهام . وحين حلّ في المدينة ، بعد هجرته اليها ، كانت الأمية أكثر انتشارا منها من مكة ، اذ كانت مكة مركزاً هاماً عند العرب ، ولم تكن المدينة كذلك . والتجارة تحتاج إلى الكتابة ، كما بينا ذلك في كلام سابق . ومن هنا كان في مكة من يكتب ، وقد كتب عدد من المسلمين آى القرآن فيها ، كما كتبوا الآي وكتبوا الرسائل والعهود في المدينة . ولعل وجود اليهود في المدينة من عوامل تفشي الامية فيها ، إذ كانوا لايفتأون يثيرون الفتن والقلاقل بين العرب من أهلها ، حتى كان من الأوس والخزرج ما كان. فلما ان جاء الرسول المدينة اجتمعت قلوب القبيلتين على الايمان، وصاروا يعرفون بـ«الأنصار» لنصرتهم النبي (ص) وأصحابه ، في إيوائهم ، وقبول دعوتهم .

حتى اذا دارت معركة بدر الكبرى ، واسر المسلمون سبعين أسيراً (١) من المشركين ، وجد الرسول (ص) فرصته سانحة للاستفادة منهم في محو الأمية الأبجدية ، في حين تولى هو وتعليمات القرآن محو الأمية الحضارية ، سواء ماتعلق منها بالثقافة الشرعية ، أو بالثقافة الحياتية العامة التي تتصل بالدين الجديد. وقد استطاع المعلم الأول للمسلمين أن يحقق هذا الطموح ، وان يضع اللبنة الاولى للتعليم في الاسلام ، سالكاً في ذلك أسلوباً تربوياً عالياً وسليماً . ذلك أنه رخّص

---

(١) ابن سعد : الطبقات ٢/ ١٤

لمن لم يستطع أن يدفع الفدية من الاسرى، أن يعلّم عشرة من أبناء الأنصار الكتابة. ويبدو أنه اتخذ المسجد أول مدرسة لتعليم هؤلاء الاميين، اذ لم يكن ثـمّ مكان أفضل منه في أداء مهمة التعليم. وكان تحديد العدد بعشرة متعلمين أسلوباً تربوياً جيداً. إذ أن هذا العدد المحدود، سيفسح المجال للتعلم بوقت أقل وبصورة أفضل.

وفي هذا يقول ابن سعد في طبقاته:

«كان فداء أسارى بدر أربعة آلاف إلى ما دون ذلك، فمن لم يكن عنده شيء أمِرَ أن يعلم غلمان الانصار الكتاب». ثم يروى بسنده عن جابر بن عبدالله الأنصارى عن عامر أنه قال: «أسر رسول الله (صلعم) يوم بدر سبعين سيراً، وكان يفادى بهم على قدر أموالهم، وكان أهل مكة يكتبون، وأهل المدينة لايكتبون-(٢). فمن لم يكن له فداء دفع اليه عشرة غلمان من غلمان المدينة فعلّمهم، فاذا حذقوا فهم فداؤه». وروى ابن سعد أيضاً أن «فداء أهل بدر أربعين أوقية، فمن لم يكن عنده، علّم عشرة من المسلمين الكتابة، فكان زيد بن ثابت ممَن عُلّم» (٣)

ولا يعارض هذا ماروواه ابن هشام في السيرة (٤) من أن «فداء المشركين يومئذ أربعة آلاف درهم إلى ألف درهم، إلا من لاشيء له فمنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه».

إذ أن المن على من لم يستطع أداء الحد الادنى من مبلغ الفداء — وهو ألف درهم —، لابد أن يكون خاصاً بالأميين من المشركين دون الكاتبين. لأن الأخيرين ملزمون بتعليم عشرة صبيان، كما تقدم.

ويلاحظ هنا أن عملية التعليم اتخذت صفة جماعية ورسمية، واتسمت بمحفز قوي للمعلم، وهو الفك من الأسر، فضلا على تشجيع المتعلم. كما أنها كانت

---

(٢) لا بد ان هذا الحكم مبني على الغالب، اذ ليس من المعقول الا يكون بين اهل المدينة من يكتب

(٣) ابن سعد: الطبقات ١٤/٢

(٤) السيرة النبوية ٤٨٥/٢.

ذات صفة خاصة لانحسب أنها مسبوقة في التاريخ ، وهي قيام الاسرى بالتعليم. وفوق ذلك امتازت بسمة متفردة ، وهي قيام مجموعة من مدينة بتعليم أميين من مدينة أخرى لحاجة وضرورة تقتضي ذلك .

ويلاحظ أيضاً ان التعليم كان مجانياً ، إذ لم يذكر في أى مصدر أن المتعلمين دفعوا أجراً لقاء تعلمهم ، بل إنّ المنهج النبوى في التعليم كان يقوم دائماً على أساس مجانية التعليم ، كما سنرى . هذا إلى ان الرسول (ص) حدد عدداً معيناً من الدارسين ، لكل معلم ، وهو عشرة . وهذا كما نوهنا سالفاً ، أسلوب تربوي ناجح .

فهذا التعليم المبكر إذاً نستطيع أن نسمه بثلاث سمات هامة رئيسية :

إحداها : إنه تعليم جماعي .

وثانيتها : إنه ذو صفة تربوية سليمة نافعة .

وثالثتها : إن له محفزات قوية ، مُنحت للمعلمين.

ويلاحظ من قول ابن سعد الذى أوردناه سالفاً ، وهو أن « أهل مكة يكتبون وأهل المدينة لايكتبون » ، أن «المعلم الأول» أراد ان يقيم دولة الاسلام الفتية في المدينة ، على اسس متينة ، وأول ما فكر فيه ، في أعقاب الحرب ، محو أمية الأنصار ، الذين يؤلفون شطر أصحابه وبناة دولته ، لكي لايكونوا دون مستوى الفئة المناوئة لهم في مكة ، والفئة المتربصة بهم في المدينة — وهم اليهود — من الناحية الثقافية والحضارية . وليكون هذا التعليم الاولي بداية انطلاقة للمعرفة الحضارية المتنوعة ، التي جاء بها الدين الجديد ، والتي هي ركن أساس في حياة الأمة وتطورها وبقائها .

ومما يشعر بأهمية هذه الخطوة التعليمية المبكرة ، ان القرآن لم يؤكد الفداء بالمال بقدر ما أكد العلم ، بل قدّم المنّ على الاسرى ، على الفداء (١) ، بل عدّه عرضاً زائلاً ، وحرّض المؤمنين أن يؤدوا رسالتهم نحو دينهم قبل أن يعملوا

---

(١) انظر الآية ٤ من سورة محمد .

إلى ما ينالونه من هذه الأعراض . ولهذا عاتبهم الله حين أخذوا الفداء — والنبي كاره لأخذه (٢) — من الاسرى في معركة بدر ، فقال :

« ماكان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الارض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ..» ، (١) بل إنه عاتبهم بشدة على ذلك اذ قال :

« لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم » (٢)، ثم أحلها لهم بعد ذلك (٣) بقوله : « فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله إن الله غفور رحيم » (٤).

والكلام يسلم هنا إلى مسألة هامة، نوهنا بها سالفاً، ولم نفصل الحديث عنها وهي :

(٣)

مجانية التعليم :

كان التعليم في عصر صدر الاسلام مجانياً ، وكانت بادرة مدرسة المدينة التعليمية المجانية ، وما تلاها من تعليمات الرسول (ص) وتطبيقاته ، سنّة وطريقة انتهجها المسلمون الأوائل من الصحابة ، والتزموا بها . اذ لم يأخذوا على التعليم أجراً من الدولة ولامن المتعلمين ، وقد كان عطاؤهم السنوي الذى يأخذونه من بيت المال ، هو المرتب الذى يغنيهم عن ان يأخذوا هذا الأجر ، فضلا عن ان منهم من كان ذا مال يكفيه بحيث لايجد حاجة إلى الاعتياش بأخذ الأجر على التعليم. ولم تكن في ذلك العصر فئة خاصة بالتعليم ، وانما كان التعليم واجباً كل من كان قادراً على ادائه ، بحسب ما تسنح له الفرصة ويؤاتيه الوقت .

هذا إلى ان تعليمات الرسول وأقواله تركت أثراً إيجابياً ومحفزاً فعالاً في

---

(٢) الطوسي : البيان في تفسير القرآن ١٤٨/٤ ، وذكر ان سعد بن معاذ رأى كراهية اخذ الفداء على وجه النبي (ص) ، وان ذلك لم يكن بناء على رغبته بل رغبة بعض اصحابه ، وانظر : رسالتنا للدكتوراه : منهج الطوسي في تفسير القرآن الكريم ص١٣٩ — مطبوعة بالرونيو —

(١) الأنفال ٦٧

(٢) الأنفال : ٦٨

(٣) ابن هشام : السيرة ٢٩٩/٢

(٤) الأنفال : ٦٩.

نفوس أصحابه . بل كونت وعياً تعليمياً من نوع خاص ، وعياً يعطي للعملية التعليمية أبعاداً واسعة وإنسانية ، ذلك أنه جعل طرفي هذه العملية — وهما العالم والمتعلم — شريكين في الفائدة ، وفي العطاء الذى تؤتيه العملية التعليمية ، ولم يقصر تلك الفائدة وذلك العطاء على المتعلم وحده .

ونتبين ذلك بوضوح من هذا الحديث :

« العالم والمتعلم في الخير شريكان ، ولا خير في سائر الناس بعدُ» (١)
ويلحظ من هذا النص ان النبي (ص) حين أخبر ان العالم والمتعلم شريكان في الخير ، قدم العالم — وهو المعلم — على المتعلم ، ثم أخـــرج سواهما من هذا الخير الذي بشر به . وهذا يشعرنا بأمرين :

أحدهما أن في تقديم المعلم — فوق الاشعار بفضله على المتعلم — تنبيهاً على انه الأهم الأولى بأن ينال من خير هذه الشركة . وهـذا لاشك محفز له على الاسهام بالتعليم ونشره، دون مطالبة منه بأجو مادي، لأنه برجاء الأجر المعنوي في الدنيا ، أو الثواب في الآخرة .

والثاني — ان في هذا التقديم ايحاء للمتعلم بأن يراعي منزلة المعلم ، وأن يحفظ له ما هو جدير به من التقديم والاجلال ، والاعتراف بالخير الذي هو الطرف الأول فيه . وأكثر من ذلك شمولا الحديث الذي جمع بين أربعة أطراف وساوى بينها في الأجر والثواب ، وان لم تخرج تلك الأطراف في جملتها — في الواقع — عن أن تكون طرفين اثنين : أحدهما — معلم ، والآخر — متعلم . وقد صيغ الحديث بهذه الصورة الحاثة على طلب العلم ، المحببة له :

«العلم خزائن ومفتاحها السؤال ، فاسألوا — رحمكم الله — ، فإنه يؤجر أربعة : السائل ، والمجيب والمستمع ، والمحب لهم » (٢) .

(١) الحاكم : معرفة علوم الحديث ص ٩٠
(٢) المجازات النبوية للشريف الرضي ص٢٠٩ الحديث ١٦٩

وقد اجاد الشريف الرضي (ت٤٠٦هـ) في بيانه للمجاز في هذا الحديث، وهو يبحث عنه في هذا التشبيه الرائع البليغ : «العلم خزائن» ، فقال: «وهذا القول مجاز ، والمراد تشبيه العلم في قلوب العلماء بالخزائن المستبهمة ، والأبواب المغلقة . وانما تستفتح بسؤال السائلين ، ويستخرج ما فيها ببحث الباحثين» (٢). وعبارة : «بحث الباحثين » رائعة هنا ، وملائمة للقيمة العلمية التي قد يؤدي اليها السؤال ويكشف عنها .

فالرسول (ص) كان يؤكد مسألة هامة في مجانية التعليم ،وهي احلال الثواب الرباني الجزيل محل العطاء الدنيوي الزائل ، أو بعبارة أخرى : انه عمل على استجاشة المشاعر الدينية النبيلة فينفوس اصحابه، بل اتباعه جميعاً على مر العصور. ومن هذا المنطلق انبرى الرسول (ص) يحث على مجانيه التعليم،وان شئت فقل: يوجب ذلك على من علّم المسلمين. وقد بلغ من اهتمامه بذلك أن أوعد الذين اخذوا أجراً على التعليم ، بالعذاب يوم القيامة .

فمن ذلك قوله لأبيّ بن كعب ، وقد اعطاه الطفيل بن عمرو الدوسي قوساً له جزاء على اقرائه القرآن : « تقلدها شلوة من جهنم » (٣) .

قال الرضي : «وفي هذا القول مجاز ،لأنه عليه الصلاة والسلام جعل القوس اذ كانت تُكْسبُ آخذها على الوجه المكروه عذاب جهنم ، كأنه شلوة من نار جهنم » (٤) .

وعلى هذا المنهج سار أصحاب النبي (ص)الذين حملوا لواء علمه ومدرسته من بعده ، فشملت مجانية التعليم عندهم مجانية الكتاب او الدراسة. ويدل على ذلك هذا الخبر الذي رواه ابن قتيبة (٥) بسنده عن عبد الله بن شقيق ، من أنه

---

(١) يطلق الشريف الرضي اسم (المجاز) على كل ما ليس بحقيقة من التعابير ، وهو يعد التشبيه من المجاز ، وهذا راى فريق من البلاغيين .

(٢) المجازات النبوية ص٢٠٩

(٣) المجازات النبوية ص٣٧ ، الحديث ١٩

(٤) المجازات النبوية ص ٣٧

(٥) عيون الأخبار ١/ ١٣١

قال : «كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يكرهون بيع المصاحف ويرونه عظيماً وكانوا يكرهون أن يأخذ المعلم على تعليم العلماء شيئاً » .
ولا تعني الكراهة عندهم الا الترك ، بملحظ أن من كره شيئاً تركه واجتنبه.
ولا بد أن كراهتهم هذه مبعثها نهي النبي (ص) عن أخذ الأجر على التعليم من جهة ،وخوفهم من جهة أخرى من ذهاب الثواب الذي يناله المعلم، والذي أكده النبي (ص) في غير حديث ، كالذي أوردناه سالفاً ، وكقوله أيضاً :

«تعلموا العلم » ، ثم قوله : «وتعليمه من لايعلمه صدقة» (١)

(٣)

الامر بكتابة العلم ونشره :

من أهم محفزات محو الامية في عصر صدر الاسلام ، حث النبي (ص) على كتابه العلم وتقييده فقد كان (ص) يدرك أهمية التدوين في حفظ العلم واستمرار نفعه الى الأجيال القادمة . فكان التدوين في الواقع اللبنة الثانية –بعد الحث على طلب العلم – في الصرح العلمي الذي شاده ودعا الى الحفاظ عليه .
وفي هذا يقول باحث معاصر نابه هو الدكتور محمد ماهر حمادة(٢) : «والواقع أن قصة التدوين في الاسلام شيقة ، تستحق وقفة عندها ؛ لأنها الأساس العلمي الذي استند اليه نظام التأليف في الاسلام » .

ومما ورد في هذا الموضوع قول النبي (ص) : «قيّدوا العلم بالكتاب»(٣) فعبّر عن التدوين بالتقييد ، وهو اللفظ الذي نستعمله اليوم في حياتنا اللغوية العامة. وجعل «ضروب العلم بمنزلة الابل الصعاب التي تشرد ان لم تعقل–تربط بالعقال– وتندّ ان لم تقيّد ، وجعل الكتاب لها بمنزلة الاقياد المانعة والعقل اللازمة.. » .

(١) ابن عبدالبر : كتاب العلم ص ٢٧ نقلا عن تذكرة السامع لابن جماعة ص ١١
(٢) المكتبات في الاسلام ص ٣٧
(٣) المجازات النبوية ص ١٧٩ ، الحديث ١٤٠

وعلى هذا النهج العلمي القويم سار اصحاب النبي (ص) من بعده ، فعنوا بتدوين العلم ، وأوصوا بذلك . فقد قال عثمان : « قيدوا العلم» فسأله من سمعه : « وما تقييده »؟! فقال: « تعلّموه وعلّموه واستنسخوه ، فانه يوشك أن يذهب العلماء ،ويبقى القُرّاء لاتجاوز قراءة أحدهم تراقيه » (١).
ويلحظ من هذا النص أنه جعل نشر العلم يتم بطريقتين :

أحداهما — تعلمه ، والثانية — استنساخه ، ذلك أن في الاستنساخ حفظاً من الضياع والدروس ، وتمكينا له من نشره ، وانتقاله من مكان لآخر بيسر . وهذا لاشك امتداد لوصايا الرسول (ص) بطلب العلم وتدوينه، على مابيّناه سالفاً .

ولم يفت الصحابة أيضاً ،أثر الكتابة في زيادة ثقافة الانسان،ودورها في تفاوت المعرفة مابين فرد وآخر . فقد روي عن أبي هريرة أنه علل كثرة مارواه عبد الله بن عمرو من الحديث ، وزيادته على مارواه هو منه ، بقوله : « فانه كان يكتب ولا أكتب » (٢) وفي رواية أخرى : « فانه كان يكتب بيده ويعيه بقلبه ، وكنت أعيه بقلبي ولاأكتب بيدي » (٣) . أو بعبارة أخرى إن ابا هريرة كان يعتمد على حفظ العلم عن ظهر قلب ، وكان عبدالله ابن عمر يعتمد على الحفظ عن ظهر قلب وعلى التدوين معاً ، وهذا أجدى وألصق بالذهن من غير ريب.

واذا رجعنا إلى أقوال النبي (ص) الواردة في نشر العلم خاصة،وجدناها محفزا على التعلم ، اذ بيّن (ص) أن نشر العلـــم عمل صالح يجد المؤمن ثوابه عند الله ، وان أول مايلحق المؤمن من عمله وحسناتـــه بعد موته : « علمٌ علّمه ونشره » (٤) .

---

(١) الحكيم الترمذي : الأمثال من الكتاب والسنة ص ٣١ .
(٢) صحيح البخاري ١١/ ٢١٧ بشرح ابن حجر .
(٣) مسند الامام احمد (الفتح الرباني) ١/ ١٧٣ الرخصة في كتابة الحديث .
(٤) سنن ابن ماجة ١٠٦/١ ، وانظر : التبريزي : مشكاة المصابيح ٨٥/١ كتاب العلم .

عِلْمٌ عَلِمَه ونشره » (١) .

وكان تأكيد الرسول الاستفادة من العلم يصدر عن نظرة حضارية قيمة. فقد كان يحث على الاستفادة الذاتية والاجتماعية من العلم ، او بعبارة أخرى يحث على أن ينتفع به صاحبه عملياً ، ثم يبذله لمن يريد الاستفادة منه . ولعل الحديث الآتي يعبر عن هذا المنهج بوضوح ، وفيه يقول :

«إنّ مثل علم لاينتفع به كمثل كنز لاينفق في سبيل الله عز وجلّ » (٢) .

وقد تأثر بالنبي في هذا القول بعض أصحابه ، فقد قال سلمان الفارسي : «علم لايقال به ككنز لاينفق منه» (٣) . فشبه العلم بالكنز ، وهو تشبيه يوحي بقيمة العلم في نفوس المسلمين الأوائل . وقد مرّ علينا سالفاً تشبيه العلم بالخزائن في حديث الرسول (ص) ، وهذا ماأعطى العلم قيمته الموضوعية ، في وسط كان يعنى بالماديات أكثر من عنايته بالمعنويات ، واعني به الوسط الجاهلي . فلما جاء الاسلام أثر فيه التأثير العلمي الذي يتناسب وتكوين أمة ذات حضارة . ولا نظفر بتقسيم أشمل ولا أصح ولا اكثر استيفاء لصور التعليم ، من هذا التقسيم الذي تضمنه الحديث الشريف :

«أغدُ عالماً، أو متعلماً ، أو مستمعاً ، أو محباً ، ولا تكن الخامسة فتهلك» (٤).

فهذا التقسيم يجعل أهل العلم أربعة : أحدهم المعلم ، والثاني المتعلم ، والثالث المستمع الذي لم يكن هو المقصود بالدرس أصلا ، بل كان غيره المقصود وكان نصيبه منه السماع للاستفادة ، والرابع المحب للعلم ، الذي يدفعه حبه له ، إلى البحث عن مصادره ومظانه : البشرية ، والمكتوبة ، والخاضعة للتجربة ، والتأمل ... وما إليها من صور تصلح لأن تكون مصادر للمعرفة الانسانية . وأخرج الخامس من ساحة هذا المربع التعليمي المنسجم في أبعاده الذي تنتظم فيه صورة العلم والتعلم كاملة ، وذلك بأن نهى السامع عن أن

---

(١) سنن ابن ماجة ١/١٠٦ ،وانظر : التبريزي : مشكاة المصابيح ١/٨٥ كتاب العلم .

(٢) مسند احمد (الفتح الرباني) ١/١٦١ ، وانظر : التبريزي : مشكاة المصابيح ١/٩٢ كتاب العلم .

(٣) ابن قتيبة : عيون الأخبار ٢/ ١٢٦ .

(٤) السيوطي : الجامع الصغير ١/٤٨ ورمز إلى انه قد رواه البزار ،والطبراني في معجمه الأوسط .

يكون هذا الخامس ، الذي لامكان له في ساحة العلم والمعرفة ؛ لأننا إذا تجاوزنا هؤلاء الأربعة لانجد خامساً يعتد به يمكن أن يكون على شاكلتهم في التعلق بسبب من أسباب العلم .

(٤)

الحث على قراءة القرآن ونسخه :

كان لحث الرسول (ص) على قراءة القرآن ، وبيانه فضائله ، والثواب الذي ينال قارئه ، أثرها البالغ في التحفيز على تعلم القراءة والكتابة في عصر صدر الاسلام ، بل في بقية العصور إلى يومنا هذا . ذلك أنه لم يكن ثم شيء أحب الى المسلمين الأوائل خاصة ، من تلاوة كتاب الله الكريم ، الذي فيه هدايتهم وتوجيههم إلى ماينفعهم من أمر دنياهم وآخرتهم .

وكان النبي (ص) يوصي مبعوثيه إلى القبائل بتعليمهم القرآن ، في جملة مايوصيهم به (١) ، وكان ذلك يجد تجاوباً وقبولاً .

وكان من إكرامه لأهل القرآن ، تأميرهم على من سواهم ، وإن كانوا اكبر منهم سناً . فقد أمّر عثمان بن أبي العاص على ثقيف ، حين أسلموا ، لأنه «كان أحرصهم على التفقه في الاسلام ، وتعلّم القرآن» . وقد شهد له أبو بكر الصديق بذلك عند رسول الله (ص) (٢) .

وكان قوله (ص) : «خيركم من تعلم القرآن وعلمه (٣) » ، وقوله : «إنّ أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه » (٤) ، وغيرهما من الأحاديث الدالة على فضل تعلم القرآن وتعليمه ، خير حافز على هذه المشاركة العلمية بين المعلم

---

(١) ابن هشام : السيرة ٤/ ١٠١٢ وما بعدها ، وفي كتاب النبي (ص) إلى بني الحارث بن كعب حين «ولى وفدهم عمرو بن حزم ليفقههم في الدين ويعلمهم السنة ومعالم الاسلام » أنه : ويعلم الناس القرآن ويفقههم فيه انظر ٤/١٠١٤ من السيرة .

(٢) ابن هشام : السيرة ٤/ ٩٦٧ .

(٣) البخاري : الصحيح ، فضائل القرآن ١٠/ ٤٥٢ بشرح ابن حجر ، وصحيح الترمذي ١١/ ٣٢ فضائل القرآن

(٤) المصدر نفسه ١٠ /٤٥٤ .

والمتعلم . فلم يترك الرسول (ص) أصحابه يقفون عند الاستفادة الذاتية ، بل كان يطمح إلى أن يكونوا متفاعلين مع مجتمعهم الجديد ، مؤثرين فيه ثقافياً وحضارياً . وهذا ماكان بالفعل ، والتزم به المسلمون عملياً ، حتى إن أبا عبد الرحمن السلمي أقرأ الناس القرآن — بعدما سمع بهذا الحديث — منذ خلافة عثمان بن عفان إلى عهد الحجاج بن يوسف ، وقال في تعليل هذا العمل العلمي وتوضيحه : «وذاك الذي أقعدني مقعدي هذا » (١) . فهذا إقرار منه بأنه أقرأ القرآن طيلة هذه المدة الطويلة بتحفيز وتحريك من ذلك الحديث الشريف الذي أوردناه . وكان النبي (ص) يشجع أصحابه على تلاوة القرآن واستظهاره ، بأساليب متنوعة منها الثناء على حملة القرآن ، ومنها منح القراء الحفاظ امتيازات خاصة ، تشجيعاً لغيرهم ، حتى إنه زوج رجلاً معدماً من المسلمين امرأة وهبت نفسها للزواج منه ، بما كان يحفظ ذلك الرجل من آي القرآن . فقد قال له ، بعد أن علم بفقره ، : «مامعك من القرآن ؟ قال : كذا وكذا ، قال فقد زوجتكها بما معك من القرآن » (٤) . وكان يرّغب أصحابه في قراءة القرآن في المصحف نظراً ، ويفضلها على قراءته غيباً . فقد روي عنه أنه قال : «فضل قراءة القرآن نظراً على من يقرؤه ظهراً ، كفضل الفريضة على النافلة » (٣) .

وورد مثل ذلك عن أصحابه ، إذ روي عن عبد الله بن مسعود أنه قال : «أديموا النظر في المصحف » . وكان إذا اجتمع إليه عدد من المسلمين «نشروا المصحف ، فقرأ ، أو فسر لهم » (٤) .

وقد علق ابن كثير (٥) على هذين الخبرين بقوله : «الذي صرح به العلماء أن قراءة القرآن في المصحف أفضل ، لأنه يشتمل على التلاوة والنظر في المصحف.

---

(١) المصدر نفسه ١٠/ ٤٥٣ ، وانظر تعليقة ابن حجر على هذا الخبر في المكان نفسه .
(٢) البخاري : الصحيح ، فضائل القرآن ١٠/ ٤٥٤ بشرح ابن حجر
(٣) ابن كثير : فضائل القرآن ص ٦٥ .
(٤) ابن كثير : فضائل القرآن ص ٦٥ .
(٥) فضائل القرآن ص ٦٥ .

وهو عبادة ، كما صرح به غير واحد من السلف ، وكرهوا أن يمضي على الرجل يوم لا ينظر في مصحفه » .

وإلى جانب ذلك كان الصحابة يظهرون احتراماً كبيراً لقراء القرآن ، ويرونهم ممتازين على غيرهم لهذه الصفة . وليس أدل على ذلك مما قاله عبدالله بن عباس في شأن مكانة القراء لدى عمر بن الخطاب ، وتقريبه اياهم ، واتخاذهم على تباين أعمارهم مجلس شورى له ، فقد قال : « كان القراء أصحاب مجلس عمر ومشاورته ، كهولا كانوا أو شباناً » (١).

وكانت الحاجة إلى كتابة القرآن ، ونسخه بنسخ كافية تفيد عددا كبيراً من المسلمين ، وسيلة من وسائل التحفيز على محو الامية الأبجدية .

وقد كان للنبي (ص) عدد من كتّاب القرآن ، وكانوا ممن عرف بالنباهة والايمان الصادق والاخلاص المشهود . ومن هؤلاء الكتاب : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعبدالله بن الأرقم وأبي بن كعب وثابت بن قيس وخالد بن سعيد وزيد بن ثابت (٢) . وكان التسابق لنيل ثواب نسخ القرآن وسيلة ناجعة لازالة هذا النوع من الأمية وهي الأمية الأبجدية . وكان الرسول (ص) يشجع هذه العملية التعليمية ، كما كان أصحابه يفعلون ذلك . واتسمت جهودهم بنشر الكتابة وتحسينها ، بل لايبعد تطويرها . وقد عرف الامام علي بن ابي طالب خاصة ببث روح التشجيع في نفوس نساخ القرآن ، بعبارات تربوية تشحذ من عزائمهم ، وتؤدي إلى تحسين وتطوير خطوطهم . ويدل على ذلك ماحكاه أبو حكيمة العبدي ، فقال « كنت أكتب المصاحف بالكوفة فيمر علينا علي ، رضي الله عنه ، فيقوم — يقف — فينتظر فيعجبه خطنا ويقول هكذا نوروا مانور الله » . (٣)

وحدّث ايضا انه كان يمر عليه ، وهو يكتب المصاحف في الكوفة ، فيقول

---

(١) البخاري الصحيح : كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ١٧/١١ بشرح ابن حجر .

(٢) النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ٢٣٦/١٨

(٣) السجستاني : المصاحف ص٣٠

له « اجل قلمك» ، يقول « فقطعت منه ثم كتبت ، وهو قائم : فقال : نوّره كما نوره الله عزّ وجل » (١) .

وكان الامام يدرك ان لحسن الخط أثره في ايصال العلم إلى المتعلم بيسر وتشويق ، فكان يؤكد لكاتبه عبيدالله بن ابي رافع ، وضوح الخط وجماله وتنظيمه ، وليس أدل على ذلك من هذا التوجيه الذي يقدمه له ، فيقول : « ألِقْ دواتك وأطِلْ جِلفةَ قلمك ، وفرّج بين السطور ، وقرْمط بين الحروف ، فإن ذلك أجدر بصباحة الخط » (٢) . وهو نص نفيس دون شك ، يدل على علم بأصول الخط ، وتذوق لرسم الحروف بجمالية ودقة ، وتنسيق لسطور الكتابة .

القسم الثاني
الأساليب التربوية

(١)

سلك النبي (ص) وأصحابه أنجح السبل التربوية من أجل تأدية العملية التعليمية . وكان أول ما تعاهدوه بالعناية تعليم الصبيان تعليماً بعيداً عن الملل . قال ابن كثير (٣) : « استحب بعض السلف أن يترك الصبي في ابتداء عمره قليلاً للّعب ، ثم توفر همته على القراءة ، لئلا يلزم أولاً بالقراءة فيملها ويعدل عنها إلى اللعب . وكره بعضهم تعليمه القرآن وهو لايعقل مايقال له . ولكن يترك حتى إذا عقل وميّز عُلّم قليلاً قليلا ، بحسب همته ونهمته وحفظه وجودة ذهنه .

واستحب عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يُلقّن خمس آيات خمس آيات » .

وبهذا أفسح المسلمون الأوائل فرصة للعب الطفل ، كي يشبع حاجته منه

(١) المصدر نفسه ص١٣٠ – ١٣١ .
(٢) نهج البلاغة ٤/٢٢٨ بشرح محمد عبده .
(٣) فضائل القرآن ص٧١

قبل أن يتلقى تعليمه . وهذا يعني أنهم لم ينكروا هذه الحاجة الفطرية في تكوين الطفل ، ولا حاولوا كبتها بدعوى أنها مصادمة لقبوله للعلم . وهذا المنهج التربوي هوما تؤديه اليوم « رياض الأطفال » ، إذ يرسل اليها الصغار لإشباع هذه الحاجة وتلقي شيء من التعليم والتربية المناسبين لهذه السن المبكرة ، والموائمين للمرحلة التالية مرحلة الدراسة الابتدائية .

وأيضاً فانهم راعوا أن تكون سن الطفل مناسبة للمعلومات التي سيتعلمها . وهذا يبدو من كراهتهم تعليمه القرآن ، قبل ان يكون قادرا على استيعاب شيء من معانيه . وهذه مسألة في غاية الأهمية ، إذ ان إدراك الطفل لمعنى ما يقرأ – ولو تقريباً – لايجعله ينفر منه أو يمله ، بل يحببه اليه . وما ذهب اليه عمر (رض) من تعليمه القرآن خمس آيات خمس آيات مبني على أنه نزل كذلك ، في اكثر من رواية . ومنه ما حكي عن أبي العالية :«تعلموا القرآن خمس آيات خمس آيات ، فان النبي صلى الله عليه وآله كان أخذه من جبريل خمس آيات خمس آيات ». (١) وكان أبو عبد الرحمن السلمي يعلّم تلامذته على هذا المنوال ، وذلك ما حكاه اسماعيل بن خالد، إذ قال :« كان أبو عبد الرحمن السلمي ، يعلمنا القرآن خمس آيات خمس آيات ». (٢) وهناك سبب آخر لتعليم هذا العدد المحدود من الآيات ، وهو سبب تربوي ، يقوم على تعليم مقدار قليل محدود ، يمكّن الطفل من التعلم

(٢)

بروية . ويفسح له مجال معرفة معانيها بما يناسب سنه الصغيرة .

وراعى النبي (ص) في أداء رسالته التربوية التفاوت في أعمار وثقافة الدارسين . وحمل هموم أولئك الذين لايجدون قدرة وجلداً على التعلم ، وهم كبار السن من النساء والرجال ، والصغار ، والرجال الذين هم أميون ، لم يقرأوا من قبل . وأكد خاصة على الامية ، على الحالة التعليمية الغالبة على المجتمع العربي اذ ذاك . فنراه يخاطب جبريل فيقول :

---

(١) و(٢) مقاتل : الأشباه والنظائر في القرآن ص٢٧٣

« ياجبريل إني بعثت إلى امة أميين منهم العجوز والشيخ الكبير والغلام والجارية والرجل الذى لم يقرأ كتاباً قط . قال يامحمد : انّ القرآن أنزل على سبعة أحرف » (١).

وقد أدى هذا الحديث — فيما يذهب اليه الباحثون — (٢) إلى الرخصة التي أعطيت في قراءات القرآن، من همز وتسهيل، وفتح وإمالة، وترقيق وتفخيم، وما إلى ذلك من ظواهر لهجيه تجلت في القراءات القرآنية في عهد الرسول (ص).

(٣)

وكانت التربية النبوية تتسم بالبعد عن القسوة والعنف أثناء التعليم . فقد كان (ص) يرى العنف منافياً للتعليم ومضاداً له . ولذلك وضعه في حديثه في مقابل التعليم . ويتجلى ذلك في قوله :

« علّموا ولا تعنفوا ، فان المعلم خير من المعنف » (٣)

وكان لاينى يدعو إلى الرفق ، ويراه وسيلة مؤثرة تأثيرا ايجابياً في نفوس المتعلمين ، يقول :

« عليك بالرفق ، فان الرفق لايكون في شيء الا زانه ، ولا ينزع من شيء الا شانه ». (٤)

وكان إلى جانب حثه على الرفق والبعد عن العنف في معاملة المتعلمين ، ينهى عن الكلام البذيء الفاحش ، يقول :

« عليك بالرفق ، واياك والعنف والفحش ». (٥)

وكان المعلم الأول (ص) يشهد لنفسه بأنه « معلّم»، ويرى أن التعليم غير تحميل الناس المشاق . كان يراه التيسير بعينه ، وكان يراه إزالة كل معوّق دون وصول العلم إلى المتعلمين ، يقول :

---

(١) صحيح الترمذي ٦٣/١١ ابواب القراءات .

(٢) تنظر محاضراتنا في علوم القرآن الطلبة السنة الأولى بقسم اللغة العربية ، ففيها تفصيل ذلك

(٣) السيوطي : الجامع الصغير ص٦٢

(٤) البخاري : الأدب المفرد ٥٦١/١ باب الحزق .

(٥) السيوطي : الجامع الصغير ص٦٢

« إن الله لم يبعثني مُعَنّتاً ولا متعنتاً ، ولكن بعثني معلّماً ميسّراً » (١) .
فاذا علمنا أن النعت في اللغة يعني : «دخول المشقة على الانسان »(٢)، وأن المعنّت هو ذلك الذى يشدد على غيره ، ويلزمه ما يصعب عليه أداؤه ، (٣)، تبين لنا إلى أى مدى كان يرى التعليم منافياً للارهاق وتحميل الانسان ما لايطاق . الا ان هذا لايعني على أية حال أنه كان يرى التعليم غير محتاج إلى بذل وسع . بل الذي ينبغي أن يفهم من كلامه هذا ، أنه لايريد أن يقترن التعليم – الذى هو رسالة ومنهج وإعداد – بماينافي وصوله إلى المتعلم بيسر ، وبما يحمّل المتعلم جهداً ، قد لايكون قادراً على تحمله .
ولا يعارض ما بيناه آنفاً قوله عليه الصلاة والسلام :
« لاترفع عصاك عن أهلك » (٤).
إذ هو – كما يذكر الشريف الرضي – محمول على المجاز في أكثر الأقوال، وقد أوله على وجهين :
أحدهما – « أنه عليه الصلاة والسلام لم يرد الضرب بالعصا على الحقيقة ؛ لان ذلك مكروه عنده ومذموم فاعله . ألا تراه عليه الصلاة والسلام يوصي أمته بأن يرفقوا بمن ملكت أيمانهم ، حنوّاً عليهم ورأفة بهم ونظراً اليهم. فكيف بالأحرار ، من الأهل والولد الذين حقهم أوجب ، والحنوّ عليهم أولى ؟ وانما المراد : لاترفع التأديب عنهم ، ولا تُغبَّ التقويم لهم . فكنى عن ذلك بالعصا ، حملاً للكلام على عرف العرب ؛ لأن المتعارف بينها أن التأديب في الاكثر لايكون إلى الا بقرع العصا ».
والوجه الآخر – أوله به :« هو أن يكون المراد بذلك الاجتماع والائتلاف. من قولهم : فلان قد شقّ عصا المسلمين،اذا فرّق جماعتهم وبدّد إلفتهم .

---

(١) مسلم : الصحيح ١٨٨/٤ .
(٢) و(٣) الفيروز آبادى : القاموس المحيط ١٤٣/١ مادة (العنب)
(٤) الرضي : المجازات النبوية ص٣٠٢ الحديث ٢٢٩.

فكأنه عليه الصلاة والسلام أراد بقوله : لاترفع عصاك عن أهلك ، أي : احملهم أبداً على الصلاح والائتلاف ». (١)

والوجه الأول من تأويل الرضي للحديث الشريف أقرب وأولى .

إن هذه التربية النبوية السليمة ، هي التي جعلت أحد أصحابه يصفه بعد حادثة لم يعنفه فيها النبي — وهي كلامه في الصلاة — ، فيقول :

« مارأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه ، فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني ...»، بل انبرى (ص) يبين له وجه الخطأ الذى وقع فيه ، وما وما ينبغي أن يكون عليه من حسن التصرف (٢).

غير ان هذا الموقف الايجابي الواعي السليم لاينبغي أن يصدر عن طرف واحد فقط من طرفي العملية التعليمية ، بل يجب أن يصدر أيضاً عن الطرف الثاني . فاذا كان المعلم رفيقاً بمن يعلّم في منهج الرسول التربوي . فالمتعلم متواضع لمعلمه ودود له ، في هذا المنهج الفريد الرائد . هذا التعاضد التربوى بين طرفي العملية التعليمية ، يجعل تلك العملية مستساغة وناجحة .

فاذا كان الملق مذموماً في الأخلاق البشرية ، ولم يكن من أخلاق المؤمن في شيء ، فانه فيما يروى عن النبي (ص) مستساغ لايعاب ، وذلك حين يكون رائده طلب المعرفة واكتساب العلم . اذ أنه لايكون عندئذ صفة ممقوتة ، بل يكون ضرباً من التواضع وخفض الجناح لمن يمتلك ناصية العلم. ولا يكون في هذه الحال ذلاً ،بل يكون عزّاً،لان تواضــــــع طالب العلم لأستاذه ، فيه في الواقع إعزاز لذاته . فالحديث يقول :

« ليس من أخلاق المؤمن الملَق إلا في طلب العلم » (٣).

فالاسلام لم يضع العبء كله على عاتق المعلم في التربية والتعليم ، وانما جعل

---

(١) المصدر نفسه : المكان نفسه .

(*) كهرني : مثل قهرني ، فالكاف مبدلة من القاف .

(٢) مسلم : الصحيح ٧٠/٢ باب تحريم الكلام عند الصلاة

(٣) الجاحظ : البيان والتبين ٣٨/٢ .

المعلم والمتعلم كليهما شريكين فيهما . فاذا كان قد الزم المعلم - كما بينا - بمراعاة الأساليب التربوية في تعليمه ، فقد الزم المتعلم بمراعاة الجوانب الأخلاقية الطيبة في تعامله مع استاذه وزملائه . فأوجب عليه احترام الأستاذ، احتراماً للعلم الذي يحمله وينشره . وفرض عليه احترام زملائه ، لمؤاخاتهم اياه في الدراسة ، وملازمتهم له في تحصيل العلم . وهذا في الواقع له مردود نفسي عال ، وحصيلة تربوية قيمة .

فالمتعلم اذا التزم بآداب التعلم ، أكسب ذلك معلمه شعوراً نفسياً مريحاً فياضاً بالرضى ، وحفزه بالتالي على أن يؤدى العملية التعليمية بكفاية ورغبة وحرص . وبعكسه المتعلم الذى لايراعى هذه الأمور ، فإنه غالباً ما يكون بسوء تصرفه مضراً بالدرس ، معيقاً لتطبيق التربية السليمة ، مالم يتدارك ذلك المعلم بحكمته وأسلوبه التربوي البعيد عن العنف والقسوة .

وهذا الاسلوب المتكامل السمات ، قد يبدو جديداً في التربية ، الا انه في الواقع قديم ، وهو من معطيات التربية النبوية الحكيمة ، التي حمل أساليبها أصحاب النبي (ص) ، وطبقوها في مجالسهم التعليمية ، وصارت لهم منهجاً يلتزمون به ، ويوجّهون اليه تلاميذهم .

ولدينا في هذا المجال نص للامام علي بن أبي طالب ، يتميز بهذه الأساليب التي نوهنا بها ، والتي يلتزم بها المتعلم في مجلس الدرس والتعلم ، وفيه يقول الامام مخاطباً بعض تلامذته :

« من حق العالم عليك اذا أتيته ، أن تسلّم على القوم عامة وتخصه بالتحية وان تجلس قدّامه ، ولا تشير بيدك ولا تغمز بعينك ، ولا تقول : قال فلان ، خلافاً لقوله . ولاتغتاب عنده أحداً ، ولا تسارّ في مجلسه ، ولا تأخذ بثوبه ، ولا تلحّ عليه اذا كسل ، ولا تعرض (١) من صحبته لك فانما هو بمنزلة النخلة ، لايزال يسقط عليك منها شيء » (٢).

---

(١) لا تعرض : لا تمل ، لا تضجر .

(٢) ابن قتيبة : عيون الأخبار ١/١١٩ - ١٢٠

ونلحظ من هذا النص أموراً تربوية يتعلق أكثرها بالمحافظة على هيبته الدرس وضبطه . ما أحرى المتعلمين عندنا اليوم أن يأخذوا بها :

أحدها — ضرورة احترام طالب العلم لأستاذه وزملائه .

وثانيها — تجنب ما يثير الريب أثناء الدرس من غمز واشارات قد يفسرها الاستاذ تفسيراً لايقصدة الطالب أصلاً . اذ قد يراها استخفافاً به أو بعلمه ودرسه ، فيؤدى ذلك إلى ارباكه واضطراب ذهنه ، لتوزّعه بين المادة العلمية التي يلقيها ، وبين تصرف الطالب .

وثالثها — الحرص على عدم معارضة الاستاذ بأقوال غيره العلمية ، التي قد لاتكون هي الراجحة ، بل قد تكون مرجوحة او مغلوطة أصلاً .

ولا يعني هذا بطبيعة الحال امتناع الطالب من الادلاء برأيه، ان كان له رأى، أو إظهار وجهه نظر له في مسألة من المسائل ، وموضوع من الموضوعات ، التي يعرض لها الاستاذ ، إذ ان ذلك صادر عن تفكير منه ، وليس عن تفكير لآخر فيه مصادمة لرأى أستاذه .

ورابعها — الا يكون الطالب مجافياً للذوق العلمي بالتعلق بملابس أستاذه وجذبها ، من أجل تنبيهه او الاصغاء له ، اذا لم يستمع لسؤال يسأله أو رأى يبديه — كما يحصل أحياناً في اثناء الفُرص ما بين الدروس والاستاذ في حاجة إلى الراحة ، ليستعد للدرس التالي — فيبنغي على الطالب الا يلح في السؤال والحديث ، اذا اعتذر استاذه عن الاجابة عنه في ذلك الوقت ، للسبب الذى بيناه آنفاً ، او لغيره من الاسباب .

وخامسها — الا يكون الطالب ملولاً من درس أستاذه ، بحيث يؤديه ذلك مثلا إلى عدم حضوره . فإنه وان ملّه لايعدم الافادة منه .

وهذه التوجيهات التربوية لطالب العلم لاشك أنها ذات أهمية ، وهي صادرة عن رجل من قادة المسلمين في التعليم ، تعلّم وعلّم وخبر الحياة والناس ، وكان قدوته في ذلك المعلم الأول نبيّ الرحمة (ص) . وبالمقابل وضع الامام علي قاعدة هامة للمتعلم والمعلم معاً تتعلق بالناحية العلمية :

ولها مساس بالناحية التربوية أيضاً ، ذلك أنه ذكر أربع وصايا وسماها : (كلمات) ، وقال لأصحابه يوجههم : « لو رحّلتم المطيّ فيهن ، لاتصيبوهن قبل أن تدركوا مثلهن » ، وجعل الثالثة من هذه التوجيهات ، وجوب ، استبعاد « الحياء السلبي » في التعلم لدى المتعلم ، فقال : « ولايستحي من لايعلم أن يتعلم » ، ووجوب استبعاده من نفس المعلم أيضاً :
« ولا يستحي إذا سئل عما لايعلم أن يقول : الله أعلم » (١) . وهذا يفيد المتعلم الكبير السن خاصة ؛ إذ كثيرا ما يمنع كبر السن صاحبه من تلقي العلم ؛ وهذا يتجلى لدى الأميين بوضوح. ولا يبعد ان يكون مجاهد بن جبر المفسر التابعي ، قد أخذ هذا التوجيه التربوى عنه ، حين قال : «لايتعلم العلم مستحي ولا مستكبر» (٢) ، والسبب في هذا ان المستحي يخجل من ان يسأل عما لايعرف ، أو أن يحضر مجالس الدرس ، وأما المستكبر ، فأمره معروف ؛ إذ أن كِبْره يمنعه من السؤال كما يمنعه من حضور تلك المجالس .
والكلامّ يسلم هنا إلى مسألة هامة لم تفت الصحابة ، وهي العلاقة بين المركز الاجتماعي وبين التعليم وتأثير هذا المركز على موقف الفرد من التعليم .
إذا رجعنا إلى اقوال الصحابة ، ألفينا قولا لعمر بن الخطاب يقول فيه :
« تفقهوا قبل أن تسوّدوا » (٣) .
وقد فسره أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه : « غريب الحديث » بقوله «معناه تفقهوا وأنتم صغار قبل أن تصيروا سادة ، فتمنعكم الأنفة عن الأخذ عمن هو دونكم فتبقوا جهّالاً » (٤).
وأول ابن حجر هذا الخبر بقوله : « ان تعجلتم الرياسة ، التي من عادتها أن تمنع صاحبها من طلب العلم ، فاتركوا تلك العادة وتعلموا العلم لتحصل لكم الغبطة الحقيقية » (٥)

(١) ابن قتيبة : عيون الأخبار ٩٩/٢
(٢) البخاري : الصحيح ٢٣٩/١ بشرح ابن حجر .
(٣) و(٤) المصدر نفسه ١٧٥/١
(٥) فتح الباري ١٧٥/١ .

والذي يبدو لنا ، هو أن هذا الكلام فيه حث على التعلم المبكر والاستمرار عليه في اثناء الرياسة أيضاً ، فهو والحال هذه تعليم مستمر لاينقطع ، ولايقف دونه المنصب ؛ إذ ان هذا التحديد ـ كما قال ابن حجر بحق ـ لامفهوم له، ولذلك عقبه البخاري بقوله : «وبعد أن تسوّدوا » ،« خشية أن يفهم أحد من ذلك أن السيادة مانعة من التفقه . وإنما أراد عمر أنها قد تكون سبباً للمنع ؛ لأن الرئيس قد يمنعه الكبر والاحتشام أن يجلس مجالس المتعلمين ، ولهذا قال مالك : من عيب القضاء ان القاضي اذا عزل لايرجع إلى مجلسه الذى كان يتعلم فيه » (١)، كما يقول ابن حجر . وهذا التوجيه لحديث عمر بن الخطاب مقبول وقريب ، اذ فيه حث على طلب العلم قبل الرياسة وبعدها ، وان كان ظاهر لفظه يشعر ان الامر متعلق بما قبلها فحسب .

غير ان إدراك الامام علي لأهمية السؤال في فتح مغاليق العلم ـ وهو ما تجلى في النص الذى أوردناه آنفاً ـ يجعله يفرق في الواقع بين ضربين من السؤال : أحدهما ـ يراد به محض التعلم ، والآخر يراد به الاحراج لا الاستفادة ، وهذا هو سؤال المتعنت .

فنراه ، اذ يشجع على الضرب الأول ، ينهى عن الثاني فيقول :

« سَلْ تفقهاً ولا تسأل تعنتاً ، فان الجاهل المتعلم شبيه بالعالم ، وإنّ العالم المتعسف شبيه بالجاهل المتعنت ». (٢)

فجعل التعنت والبعد عن الموضوعية في السؤال ، ضرباً من الجهـل ، ولذلك نهى عنه . وهو توجيه تربوي صائب ومفيد ؛ اذ كثيراً ما تكون الأسئلة المتعنتة عائقاً تعليمياً ، يؤثر في الناحية النفسية للمعلم تأثيراً سلبياً من جهة ، ويسبب هدراً لوقت الدرس من جهة أخرى. وللزمن قيمته في حياة الأفراد والشعوب ، فجاء هذا الخبر ليؤكد قيمته ، من خلال الفوائد التي تستقى من النص .

وهناك ملحظ تربوى آخر ، ورد في كلام للامام علي،وهو مراعاة مستويات

---

(١) المصدر نفسه : المكان نفسه

(٢) نهج البلاغة ٢٢٩/٤ .

المتعلمين العلمية عند تقديم المادة الدراسية . وبذلك يشعرنا أن ما يعرف في التربية الحديثة باسم « الفروق الفردية » بين المتعلمين ، أمر لابد من ملاحظته . فلا ينبغي أن يعطوا معلومات واحدة متساوية ، اذا كانت مستوياتهم العلمية متباينة . وهذا يقتضي دون شك تقسيمهم إلى (فئات) أو (مجموعات) بحسب هذه المستويات ، وهو ما تذهب اليه التربية الحديثة في كثير من الدول المتقدمة في مضمار العلم . او هو التقسيم المدرسي المعتاد الذى يقوم على قسمة الطلبة إلى مجاميع أو (صفوف) يختص كل صف منها بمواد علمية معينة ، كما هو متبع في مدارسنا اليوم . ويتجلى هذا الاسلوب التربوي في قول الامام: « حدّثوا الناس بما يعرفون، أتحبون ان يكذّب الله ورسوله »(١) ؟ !

وقد أدرك البخاري الهدف التربوي من هذا الحديث ، فجعل عنوان الباب الذى أورده فيه دالاً عليه ، إذ قال : « باب من خصّ بالعلم قوماً دون قوم كراهية ان لايفهموا »، ثم أورد الحديث .

(٤)

وسلك النبي (ص) أسلوب (المثل) او (التمثيل)، في طائفة من أقواله وتوجيهاته التعليمية والتربوية . وذلك من أجل إظهار قيمة العلم الحقيقية ، وفائدته الدينوية والآخروية ، والحث على تعلمه ونشره ، وبيان فضل الايمان والعلم اللذين دعا الناس إليهما في رسالته التي بعث بها نبياً .

وكان هدفه من هذا الاسلوب البلاغي الرفيع ، أسلوب المثل والتمثيل ، تقريب الحقائق إلى الناس في إطار فني جميل مؤثر . وبخاصة أن العرب تفهم المثل وتحب ان تسمعه وترويه . وبهذا الأسلوب نفسه قرّب القرآن كثيراً من الحقائق إلى الاذهان ، فكان المثل والتمثيل من اساليبه البلاغية الرائعة. (٢)

---

(١) البخاري : الصحيح ١/٢٣٤ — ٢٣٦ بشرح ابن حجر .

(٢) فمن التمثيل قوله تعالى : «فمن يفكر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها » البقرة : ٢٤٦ ، وقوله :» تكاد السموات يتفطرن من فوقهن » الشورى : ٤ ، الطوسي : التبيان ٢/٣١٣و٩/١٤٣ — ١٤٤ وانظر : رسالتنا للدكتوراه منهج الطوسي في تفسير القرآن الكريم ص٣٤٩ — مطبوعة بالرونيو —

فجاء بيان الرسول (ص) — وهو أفصح العرب — على وفق منهج القرآن في تصوير كثير من الامور وتقريبها إلى نفوس السامعين .

فأما المثل، فقد مرّ علينا سالفاً شيء منه، اذ رأيناه صلى الله عليه وآله، يشبه العلم بالخزائن ، فيقول : « العلم خزائن »، ويقول : « مثل علم لاينتفع به ، كمثل كنز لاينفق منه في سبيل الله ».

وأما التمثيل فهو كثير في بيانه، فمنه ماخاطب به أهل الصفّة(١) ، فقال : « أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان أو إلى العقيق (٢)، فيأتي منه بناقتين كوماوين (٣) في غير إثم ولا قطع رحم ؟ فقلنا : يارسول الله نحب ذلك . قال : أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيعلم (٤) أو يقرأ آيتين من كتاب الله عز وجل ، خير له من ناقتين ، وثلاث خير له من ثلاث ، وأربع خير له من أربع ومن اعدادهن من الإبل » (٥) .

ويتبين لنا من تحليل هذا (التمثيل) الرائع أموراً :

اولها — إن النبي (ص) مثّل لفائدة التعلم ، أو التعلم والتعليم (٦) ، بمثل محسّ من الطبيعة الحية ، ذات المساس القوي بحياة العربي في البيئة الصحراوية خاصة ، وهي الابل . وبذلك جعل وسائل الايضاح » التعليمية مستقاة من البيئة الطبيعية المحيطة بالمتعلمين ، واختارها — فوق ذلك — أشياء بارزة لافتة ذات تأثير كبير في حياتهم المادية والنفسية . وذلك ليسهل تصورهم للتمثيل وتأثرهم به .

---

(١) الصفة : مكان في مؤخر المسجد ، اعد لنزول الغرباء فيه ، ومن لا مأوى له ولا اهل.

(٢) بطحان : موضع بالمدينة ، والعقيق : واديها .

(٣) الكوماء من الابل : العظيمة السنام .

(٤) ضبطت الكلمة بهذه الصورة عند بعض الشراح ، وضبطت بتشديد اللام لدى آخرين : « فيعلم » ، والاولى هي التي في المطبوعة ، وقد رجحها ملا علي القارىء وابن الملك . ينظر الهامش

(٥) مسلم : الصحيح ١٩٧/٢ .

(٦) بناء على الراوية الأخرى التي ضبطت بها لفظة (يعلم) وهي تشديد اللام .

وثانيها – أنه حفز على التعلم بهذا التمثيل ، وسلك هذا الأسلوب البلاغي ليحقق الهدف التربوي الذي يريده ، ولم يسلك في الحث على التعلم الأسلوب الخطابي المباشر . إذ العربي أكثر تأثراً بمثل هـذه الأساليب البلاغية ، من الأساليب العادية الخالية من الاثارة النفسية واستجاشة الأحاسيس.

وثالثها – إنه سلك في تقريب هذه المعاني عن طريق التمثيل ، أسلوب الحوار المبني على السؤال والجواب . وهو أسلوب تربوي مفيد ؛ لأنه يبعث على اثارة الانتباه والتفكير ، أكثر مما يبعث السرد التقريري الذي يكون من طرف واحد فقط ، وهو طرف المعلم . وهذا لاشك يعطي ثماره العلمية والتربوية ، بأن يجعل الدرس شائقاً من جهة ، ويشرك المتعلم في العملية التعليمية من جهة اخرى .

ونراه في موقف تربوي آخر يقرب أهمية العلم والتعليم بمثل رائع من الطبيعة أيضاً ، إلا أنه (ص) يختار هذه المرة عناصر أخرى من الطبيعة ، هي الغيث والأرض والعشب والكلأ .. فيشبه حال من استفاد وأفاد من العلم ، بالأرض التي نزل عليها غيث السماء فأحياها بعد موت ، وأنبت فيها الأخضر بعد جدب أو سقى الناس فذهب بظمئهم . ويشبه حال من لم يستفد مما جاء به من العلم ، بأرض صخرية نزل عليها ماء السماء فانساح منها ، لم تصب منه خيراً ، ولم تنبت بنزوله عشباً . يقول :

«إن مثل مابعثني الله به عز وجل من الهدى والعلم ، كمثل غيث اصاب أرضاً ، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا ورعوا ، وأصاب طائفةً منها أخرى ، إنما هي قيعان لاتمسك ماء ولا تنبت كلأ . فذلك مثل من فَقه في دين الله ، ونفعه بما بعثني الله به ، فعلِمَ وَعلّمَ ، وَمثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به » (١) .

وليس من شك في أن هذا الإسلوب التربوي البليغ في تقريب معاني العلم

---

(١) مسلم : الصحيح ٦٣/٧. ورواه الامام احمد في مسنده ١٤٥/١٤ كتاب العلم ، مع اختلاف في عدد من الالفاظ ، وكذلك البخاري : انظر فتح الباري ١٨٥/١—١٨٦

والتعلم ، له أثره الكبير الفعال في التحفيز على طلب العلم والعمل به ونشره ، أو بعبارة أخرى له قيمته التربوية في محو الأمية الأبجدية والحضارية ، بما اشتمل عليه من ضروب المهارات والحاجات الانسانية : الفقهية والاجتماعية والأخلاقية والنفسية وما إليها من معطيات الثقافة الحضارية ، وضروب المعرفة التي ازدانت بها أقوال النبي (ص) ، بحيث ظهر أثرها بجلاء في أولئك التلاميذ الرواد من الصحابة ، الذين حملوا علمه وعلم مااستنبطوه من القرآن ودرسوه ، إلى الناس الذين جمعتهم وإياهم الدعوة ، وأوصلتهم إليهم روح الكفاح والجهاد الديني والعلمي ، وليس أدل على ذلك من انتقال هذا العلم إلى بلدان نائية وشعوب غير عربية . فضلاً على انتقال هذا العلم الغزير المفيد إلى الجيل الذي تلا عهد الصحابة ، وهو جيل التابعين ، الذي حمل هو الآخر مشعل هذا العطاء العلمي إلى الجيل الذي جاء من بعده وإلى الجيل الذي عاش فيه ، ولدنيا في ذلك أمثلة من علم مجاهد بن جبر والحسن البصري وقتادة بن دعامة وعطاء بن أبي رباح وسعيد بن جبير وسعيد بن المسيب وابراهيم النخعي وغيرهم من أفذاذ التابعين ، الذين خلفوا الصحابة في علوم شتى : في التفسير والحديث والفقه والسير والمغازي وما إليها . فضلاً على أن ماحمله أهل البيت الذين عاشوا زمن التابعين ، من علم غزير ورثوه عن آبائهم وجدهم النبي الأعظم ، يؤلف أساساً هاماً في بناء الثقافة الاسلامية الفذة .

تعليم المرأة

لم تكن التوجيهات النبوية المتعلقة بالتعلم قاصرة على الرجل وحده ، وانما كانت تشمل المرأة أيضاً . فلم يكن الرسول (ص) يرى في تعليم المرأة بأساً ، وانما كان يرى في ذلك ضرورة تستدعيها طبيعة المجتمع ، إذ تكوّن المرأة نصفه . ويلحظ أن النبي (ص) كان يعنى بتعليم المرأة تعليماً ابجدياً وتعليماً حضارياً . فكان يحرص على أن تتعلم المسلمات القراءة والكتابة وأن يتعلمن الأحكام الشرعية والمعاني الأخلاقية التي لابد لهن من التساح بها . ولما كان النبي أمياً أمية أبجدية ، على مابيناه في أول هذا البحث ، فقد عهد

الى بعض النساء بتعليم الأميات من أهله وأسرته ، الكتابة والقراءة ، فعهد الى أمرأة من خيرة النساء المسلمات—هي الشفاء بنت عبد الله بن عبد شمس — لتعلم السيدة حفصة الكتابة (١).

وكان يحث على تعنيم المرأة بأقرب الأساليب وأيسرها عليها ، وعلى معلمها ، دون إعنات لها أو أرهاق . وجعل من هذه الطرق القريبة أن يتولى الرجل تعليم من معه في الدار ، وحث على أن يتولى الرجل الذي يملك فتاة ، تربيتها وأن يعلمها تعليماً جيداً ليجعل منها عضواً نافعاً للاسرة والمجتمع . حتى إذا اعدها هذا الاعداد العلمي أعطاها حريتها وأعتقها من رقها ، ثم بعد ذلك تزوجها . وبين (ص) أجر من يسلك هذه السبيل التربوية التعليمية ، التي تجمع بين أمرين هامين جداً في حياة المرأة :

أحدهما : تعليمها . والثاني : تحريرها من حياة العبودية ، ثم الارتقاء بها الى مقام الزوجية ، لتكون ربة بيت مالكها سابقاً .

والحديث الذي يعرض لهذين الأمرين الهامين في حياة المرأة رواه البخاري بسنده عن أبي بردة عن أبيه عن النبي (ص) ، انه قال :

«ثلاثة لهم أجران» ،وقال عن الثالث منهم : « ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها ،وعلمها فأحسن تعليمها ، ثم اعتقها فتزوجها » (٢)

ويلحظ أن النبي (ص) جعل تعليمها مقدماً على الزواج منها ، فكانه أراد أن يشعر السامع لكلامه بأن تعليم المرأة جزء هام من تكوين شخصيتها ، وأنه مسوغ من مسوغات صلاحها زوجة ثم أماً .. كما أن مجيء تحريرها بعد تعليمها في كلامه ذو مغزى بعيد اذ هو يشعر أن هذه الحرية الذاتية مكملة للإنارة العقلية . وأيضاً أشعر أن العلم والحرية كلاهما لاغنى . عنهما بل ان من الروايات ما يشعر باهتمام الرسول الكبير بتعليم المرأة فقد ورد عنه ما يدل على أن تعليم المرأة القرآن قد يكون بدلا من مهرها ، لمن عدم المال . ففي خبر الرجل المعدم ، الذي زوجه الرسول (ص) امرأة وهبت نفسها له لتكون

(١) ابن عبد البر : الاستيعاب ٨٦٩/٤ ، وانظر : الحوفي : الأمي والأميون في القرآن الكريم مجلة (الكتاب) العدد ١٠ ص ٦٢

(٢) البخاري : الصحيح ٢٠٠/١ بشرح ابن حجر .

له زوجة، تشير بعض الروايات الى أنه «علّمها» ما كان يحفظ من آي القرآن ، وهو مارجحة ابن كثير استناداً الى رواية مسلم بن الحجاج في صحيحه : «فعلمها» (١) وكان الامام علي يحمل الوالد مسؤوليتين : احداهما تربوية تتعلق بتأديب ابنه وابنته وغرس مكارم الأخلاق في أنفسهما ، والاخرى تعليمهما القرآن . ولا شك أن ذلك يستدعي قراءة القرآن ، ويؤدي بالتالي الى وجوب تعلمهما القراءة والكتابة . وفي ذلك يقول :

« وحق الولد على الوالد أن يحسّن اسمه ، ويحسّن أدبه ، ويعلمه القرآن »

واذا لم يكن الرسول (ص) قد علم اسرته والمؤمنات برسالته ، القراءة والكتابة بنفسه ؛ بسبب أميته الأبجدية . فانه قد قام بأهم من تعليمهن حروف الهجاء اذ تولى تثقيفهن حضارياً ، بتعليم الأحكام والتوجيه الخلقي ، وازالة الخرافات والأساطير الجاهلية العالقة في اذهان طائفة منهن . ولذلك خصهن بأوقات معينة جعلها فرصة لتعليمهن ، بعد أن تبين له انهن قد لايستطعن أن يسمعن كلامه ودروسه ، وهن بعيدات نسبيا عنه بالجلوس بعد صفوف الرجال .

ويدل على ذلك ان ماروي عنه من أنه «خرج ومعه بلال فظن انه لم يسمع النساء فوعظن وأمرهن بالصدقة ... » (٢)

وكانت رغبة النساء لأن يتعلمن منه ، دافعاً لأن يطلبن منه تخصيص يوم معين لتعليمهن ، مما جعله يستجيب لرجائهن.وفي ذلك يقول الصحابي أبو سعيد الخدري :

«قال النساء للنبي صلى الله عليه وسلم ، غلبنا الرجال فاجعل لنا يوماً من نفسك فوعدهن يوماً لقيهن فيهفوعظهن ...» (٣) . وقد استنتج البخاري من ذلك أن للامام أن يرشد النساء ويعلمهن ، فجعل عنوان هذا الباب : «عظة الامام النساء وتعليمهن » (٤) .

---

(١) ابن كثير : فضائل القرآن ص٦٥

(٢) البخاري : الصحيح ٢٠٣/١ بشرح ابن حجر .

(٣) المصدر نفسه ٢٠٦/١

(٤) المصدر نفسه ٢٠٣/١

المصادر والمراجع

١ ــ أحمد شحلان : مفهوم الأمية في القرآن ، بحث في مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية لجامعة محمد الخامس في المغرب ، العدد الأول ، سنة ١٩٧٧

٢ ــ الباقلاني : أبو بكر محمد بن الطيب ، نكت الانتصار لنقل القرآن ، بتحقيق الدكتور محمد زغلول سلام ، دار بور سعيد للطباعة والنشرة الاسكندرية ١٩٧١

٣ ــ البخاري : أبو عبدالله محمد بن اسماعيل ، الأدب المفرد ، بشرح فضل الله الجيلاني ــ المطبعة السلفية ــ القاهرة ١٣٧٨ هـ.

٤ ــ البخاري : صحيح البخاري ، بشرح ابن حجر العسقلاني مطبعة البابي الحلبي ــ القاهرة ١٩٧٨هـ ــ ١٩٥٩م

٥ ــ الترمذي : أبو عيسى محمد بن عيسى ، صحيح الترمزي ، بشرح ابن العربي ، الطبعة الأولى ، مطبعة الصاوي ــ القاهرة ١٣٥٣هـ ــ ١٩٣٤ م

٦ ــ الجاحظ : أبو عثمان محمد بن بحر ، البيان والتبيين ، بتحقيق عبد السلام محمد هارون ، الطبعة الثالثة ــ القاهرة ١٣٨٨هـ ــ ١٩٦٨ م

٧ ــ الجاحظ : الحيوان ، بتحقيق عبد السلام محمد هارون ، الطبعة الثانية ، مطبعة البابي الحلبي .

٨ ــ ابن جماعة : أبو اسحق ابراهيم بن سعد الله الكناني : تذكرة السامع ، جمعية دائرة المعارف العثمانية ــ حيدر آباد الدكن ١٣٥٣ هـ

٩ ـ الحاكـــم : أبو عبد الله محمد بن عبد الله النيسابوري ، معرفة علوم الحديث،نشر وتصحيح الدكتور معظم حسين ، الطبعة الثانية ، المكتب التجاري بيروت سنة ١٩٧٧ .

١٠ ـ الحكيم الترمذي : أبو عبد الله محمد بن عليم ، بتحقيق على محمد البجاوي ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ـ القاهرة ١٩٧٥ م.

١١ ـ ابن حنبل : الامام أحمد ، المسند ، (الفتح الرباني) ترتيب أحمد عبد الرحمن البناء ، الطبعة الأولى (لم تذكر سنة الطبع)

١٢ ـ الحوفي : الدكتور أحمد ، الأمي والأميون في القرآن الكريم بحث في مجلة الكتاب ، العدد ١٠ السنة ٨، ١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤ م

١٣ ـ دائرة المعارف الاسلامية ، ترجمة محمد ثابت الفندي وجماعته ، صورة بالأوفست ، طهران .

١٤ ـ الرازي : أبو حاتم أحمد بن حمدان ، كتاب الزينة في الكلمات الاسلامية ، بتحقيق حسين فيض الله الهمداني ، الطبعة الثانية ، دار الكتاب العربي ـ القاهرة ١٩٥٧م ـ ١٩٥٨ م

١٥ ـ الراغب : أبو القاسم الحسين بن محمد ، مفردات ألفاظ القرآن ، بتحقيق نديم مرعشلي ، مطبعة التقدم العربي ـ بيروت ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢ م .

١٦ ـ الراوي : الدكتور مسارع ، مقال عن الأمية في جريدة (الثورة) العراقية العدد ٣١٠٦ ، ايلول ١٩٧٨ م.

١٧ ـ الرضي : الشريف محمد بن الحسين الموسوي ، المجازات النبوية ، بتحقيق الدكتور طه محمد الزيني ، مطبعة الفجالة الجديدة ـ القاهرة ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م

١٨ ـ الزرقاني : محمد عبد العظيم ، مناهل العرفان في علوم القرآن ، دار احياء الكتب العربية ـ القاهرة (لم تذكر سنة الطبع)

١٩ ـ الزركشي : بدر الدين محمد بن عبدالله ، البرهان في علوم القرآن ، بتحقيق ابي الفضل ابراهيم ، الطبعة الاولى ، دار احياء الكتب العربية ـ القاهرة ١٩٥٧ م .

٢٠ ـ الزمخشري : جار الله محمود بن عمر ، الكشاف عن حقائق التنزيل ، مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ١٣٦٧هـ ١٩٤٨ م .

٢١ ـ الزيدي : الدكتور كاصد ياسر ، منهج الطوسي في تفسير القرآن الكريم ، رسالة دكتوراه ـ مطبوعة بالرونيو القاهرة ١٩٧٦ م .

٢٢ ـ السجستاني : أبو بكر عبد الله بن أبي داود السجستاني ، تصحيح الدكتور آثر جفري ، صورته مكتبة المثنى ببغداد عن طبعة المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٥٥هـ ـ ١٩٣٦م

٢٣ ـ ابن سعد : محمد الواقدي ، كتاب الطبقات الكبير ، عني بتصحيحه أدوارد سخو ، صورته بالأوفست مؤسسة النصر بطهران عن طبعة ليدن ١٣٢٥هـ .

٢٤ ـ سيد قطب : التصوير الفني في القرآن ، دار المعارف ـ مصر ١٩٦٣ م .

٢٥- شكيب ارسلان :لماذا تأخر المسلمون
٢٦- ابن عبد البر: أبو عمر يوسف بن عبد الله ، الاستيعاب في معرفة الاصحاب ، بتحقيق علي محمد البجاوي ، مطبعة نهضة مصر - القاهرة (لم تذكر سنة الطبع) .
٢٧ - أبو عبيدة : معمر بن المثنى ، مجاز القرآن ، بتحقيق الدكتور محمد فؤاد سزكين ، الطبعة الثانية - القاهرة . ١٣٩٠ - ١٩٧٠ .
٢٨ - ابن قتيبة : أبو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري ،تأويل مشكل القرآن، شرح السيد احمد صقر ، الطبعة الثانية ، دار التراث - القاهرة ١٣٩٣هـ- ١٩٧٣م
٢٩ - ابن قتيبة : عيون الاخبار ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ، المؤسسة المصرية العامة - القاهرة ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣ م
٣٠ - القرطبي : أبو عبدالله محمد بن أحمد ؛ الجامع لأحكام القرآن ، دار الشعب - القاهرة (لم تذكر سنة الطبع) .
٣١ - ابن القيم : شمس الدين محمد بن أبي بكر ، التبيان في أقسام القرآن ، تصحيح طه يوسف شاهين، دار الطباعة المحمدية - القاهرة (لم تذكر سنة الطبع)
٣٢ - ابن كثير : عماد الدين اسماعيل بن كثير ، فضائل القرآن ، دار الاندلس للطباعة والنشر - بيروت ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦ م .
٣٣ - الطبرسي : أبو علي الفضل بن الحسن ، مجمع البيان في تفسير القرآن الطبعة الثانية ، دار الفكر - بيروت ١٣٨٠هـ - ١٩٦١ م .
٣٤ - الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن،الطبعة الثانية، مطبعة البابي الحلبي - بالقاهرة

٣٥ ـ الطوسي : أبو جعفر محمد بن الحسن ، التبيان في تفسير القرآن ، المطبعة العلمية ـ النجف ١٣٧٦هـ =١٩٥٧ م .
٣٦ ـ الفيروز آبادي : مجد الدين محمد بن يعقوب ، القاموس المحيط ، دار العلم للجميع ـ بيروت (لم تذكر سنة الطبع) .
٣٧ ـ محمد عبده : شرح نهج البلاغة ، بتحقيق محي الدين عبد الحميد ، مطبعة الاستقامة ـ القاهرة (لم تذكر سنة الطبع)
٣٨ ـ محمد ماهر حمادة : المكتبات في الاسلام ، نشأتها وتطورها ومصائرها ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر ، الطبعة الاولى ـ بيروت ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م .
٣٩ ـ مسلم بن الحجاج : صحيح مسلم ، مطبعة محمد علي صبيح ـ القاهرة (لم تذكر سنة الطبع) .
٤٠ ـ مقاتل بن سليمان : الأشباه والنظائر في القرآن الكريم ، بتحقيق الدكتور عبد الله محمود شحاتة ، الهيئة العامة للكتاب ـ القاهرة ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م
٤١ ـ ابن منظور : جمال الدين محمد بن مكرم ، لسان العرب ، طبعة مصورة عن طبعة بولاق . مطابع كوستاتسوماس ـ القاهرة (لم تذكر سنة الطبع)
٤٢ ـ النسفي : أبو البركات عبدالله بن احمد ، مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة (لم تذكر سنة الطبع)
٤٣ ـ ابن هشام : أبو محمد عبد الملك بن هشام ، سيرة النبي (ص) بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة المدني القاهرة ١٩٧١ م
٤٤ ـ النويري : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ، المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والطباعة ، القاهرة (لم تذكر سنة الطبع)